

كتاب الهـ

فانتازيا فرعون

محمد عفت

سنة
سنة
سنة



المكتبة العربية
www.TipsClub.com
معتز السبلي

محمد عفيفي

المكتبة العربية

www.TipsClub.com

معتز السلال

فننازيا

فرعونية

دار السلال

الْحَمْدُ لِلَّهِ

نواع من الآلهة

ذات يوم كنت أشعر بالفيظ الشديد من جدى الفرعونى ، مندهشا من ذلك الرجل الذى استطاع أن يبنى الاهرام بكل ما تحتاج اليه من علوم الحساب والهندسة والفلك ، والذى قدم للبشرية أول تقويم شمسي نسير عليه حتى اليوم ، والذى ابتكر أول لغة مكتوبة فى التاريخ ، ثم سمح لنفسه مع كل ذلك بأن يتورط فى تلك العبادات المضحكة للأبقار ، والكباش ، والعجول ، والتماسيح ، والقطط السوداء . نعم شعرت نحوه بالفيظ الشديد وأوشكت أن أكرهه ، لم يحل دون ذلك الا ما تذكرته فجأة من أن هذا الجد المتحضر كان له هو الآخر جده الخاص ، وأن الخلط بين الرجلين نوع من الفباء لا يسأل عنه أحد سواى .

عبر آلاف السنين قبل بدء التاريخ المكتوب كانت القبائل تتوافد من هنا وهناك على الوادى الخصيب ، قبائل بدائية تعيش على التقاط الغذاء من الارض والشجر ولا تعرف شيئا عن الزراعة ، ولكل قبيلة منها - كما هو الحال عند كافة القبائل البدائية - آله من الحيوان . . طوطم مقدس تعتبره القبيلة من الناحية الاجتماعية رمزا لها وعنوانا لوحدتها ، وترى فيه من الناحية « الفلسفية » تجسيدا حيا للقوى الغيبية التى

بطريقتها السحرية الفامضة تسيطر على ماجريات
الامور . وشيئا فشيئا ولاسباب معقدة بدأت تلك
الحيوانات المقدسة تتحول من طواطم الى آلهة ، متمشية
في ذلك مع ما يتميز به الذهن البشرى المتطور من ميل
الى التجريد .

ولانها آلهة خاصة بالقبائل المختلفة التى انتشرت
على ضفاف النيل فقد كان طبيعيا أن نفاجا بتلك
القائمة الطويلة من الآلهة الحيوانية ، من بقرة يعبدونها
فى دندرة الى تمساح يعبدونه فى الفيوم الى قطعة
يعبدونها فى الزقازيق . كل قبيلة جلبت معها حيوانها
المقدس ونصبته الها على المنطقة التى حلت بها من البلاد ،
وذلك قبل أن يتم توحيد القطرين وتظهر الحاجة لاله
عام على مستوى المملكة .

اذن فقد ظلمت جدى المتحضر بانى الاهرام حين
نسبت اليه تلك الآلهة الصبائية ، وما هى الا ترمة
مثقلة خلفها له جده البدائى من فجر التاريخ . ولست
اشك فى ان جدى المتحضر قد نظر الى تلك الآلهة
بالاحتقار اللازم ، وان كلمة « الالحاد » قد ترددت
أكثر من مرة فى ذلك العهد القديم .

غير اننى فى دفاعى عن هذا الجد المتحضر لا أحب
أن أظلم جده البدائى ، وانى لاظلمه ظلما شديدا اذا
أنا حكمت عليه بعقليتى العصرية وخاصة فى نظرته الى

الحيوان . وليس من شك فى انه كان فى حالة من الذهول
التام أمام الظاهرة الحيوانية العامة . فهذه الحيوانات
الفبية البكماء — هكذا لابد أن يكون قد قال لنفسه —

كيف أمكن أن تقلدنى بتلك الصورة المزعجة بأن تأكل
وتشرب وتنام مثلى ، وأن تلعب وتهاجم وتناور وتفر
وتختبئ مثلى ، ثم تتحاب وتتعاشر وتتناسل وترعى
صفارها مثلما أرعى صفارى ؟ الجواب الطبيعى بالنسبة
لرجل بدائى مثلى هو أن هذه الحيوانات بمنتهى
الاختصار ، جنتها موش خالصة ! هى ملبوسة بقوى
خفية تحركها وتلهمها ، بل هى مجرد تجسيد مادية
لتلك القوى الغيبية الخارقة ، التى تحبى فى بعض
الاحيان فتدر لى اللبن من ضرع البقرة ، وتكرهنى فى
أحيان أخرى فتدس لى السم فى قم الثعبان .

ولا شك ان البقرة كانت كائنا محببا جدا الى كرجل
بدائى ، فهل يمكنك أن تخطرئى بالسبب الذى من أجله
كانت هى الحيوان الوحيد - مثل أختها الجاموسة -
الذى رأى أن يتخصص فى تزويدى بذلك الشراب اللذيذ
المفيد الذى هو اللبن ، والذى بشئ من المجهود أستطيع
أن أحوله الى زبد وجبن وزبادى ؟ .. ماذا يرغبهما
على ذلك سوى انها كائن مقدس أرسل الى من السماء ؟
وانظر اليها حيث تجلس تحت شجرة الجميز وهى
تمضغ ، أليس غريبا للكائن أن يعضغ دون أن يكون
أمامه أى طعام ؟ أو ليس هذا دليلا جديدا على ما فيها
من قوة سحرية مستمدة من عالم الغيب ؟

هكذا لابد أن يكون الرجل البدائى قد فكر ، وفكره
هذا تجسد فيما بعد فى البقرة الالهية حتحور أو هاتور ،
الهة الجمال والحب والموسيقى ، التى تحمل السماء
كلها فوق ظهرها المقدس . وإذا كنت لاتوافق على فكرة

بقرة تحمل السماء فاسأل نفسك عن ذلك الثور الذى
قالت لك أمك فى هذا القرن العشرين انه يحمل الارض
فوق أحد قرنيه ، فاذا تعب نقلها على القرن الآخر ،
متسببا بذلك فى حدوث الزلازل . وفى اعتقادى ان بقرة
تحمل السماء على ظهرها وهى تقف على الارض أقرب
الى العقل بكثير من ثور يحمل الارض على قرنيه دون
أن يقف على أى شىء ! وفى دندرة الى يومنا هذا يحكون
لك عن بقرة مسحورة تحرس كنزا ما ، فاذا أضفناها
الى الثور المذكور فلا بد أنك تدرك مدى قسوتنا حين
نطالب جدنا البدائي بأن يكون أكثر حكمة من أحفاده
المعاصرين .

وفى منطقة الفيوم عبدوا التمساح تحت اسم «سبك»
وهو الاصل اذا كان يهملك الامر فى تسمية بعض المدن
بسبك الاحد ، وسبك الثلاث ، وسبك الضحاك . واذا
كنت اليوم ترى التمساح نائما كالقنديل فى حديقة
الحيوان فلا شك ان نظرتك له كانت تتغير لو أنك نزلت
للاستحمام فى النيل ففوجئت بفخذك محشورة بين
فكيه ، وما أظن أنك كنت تستكثر عليه فى تلك اللحظة
شيئا من التقديس أو تتورع عن استرضائه ببعض
التلاوات . ومرة أخرى قبل أن تسخر من عقلية جدك
أرجوك أن ترفع بصرك الى ذلك التمساح المضحك
المعلق على شراعة بابك أو باب جارك استجلابا للبركة
ودفعاً للشر عن البيت ، فلا شك أنك توافقنى على أن
تمساحا صاحبيا يمكنه أن يكون أقدر على تحقيق تلك
الكرامات من تمساح ميت !

ونفس الامر ينطبق على الثعبان الذي قدسوه ورسمه
الملوك على تيجانهم تيمنا بقدرته على نفث السم في وجوه
الاعداء . على الارض يسعى . كأنه مسحور - بغير أقدام

تحمله ، يتلوى ويتلوى وبين حين وآخر يخرج لهم
لسانه ، ولسانه بخلاف كافة الالسن مشقوق الى
فرعين . فاذا صاد الفريسة فهو يبتلعها بدون أن

يمضفها ، كرة كبيرة تفوص في جسمه الطويل ثم تذوب .
أما اذا عض واحدا منهم فتلك نهايته المحتومة ، متى
كان للانسان أن يبرأ من عضة اله ؟ وانه ليعترض طريق

الاله رع نفسه خلال رحلته اليومية عبر السماء كل
مساء ، وذات يوم قرصه قرصة كادت تقضى عليه لولا
أن لحقته الساحرة اللطيفة ايزيس . ويبدو أن تلك
اللدغة كانت شديدة الى درجة أن أثرها ظل باقيا حتى
يومنا هذا في عقول بعض المواطنين ، اذ نجح العوام

عندنا وفقا لحيلة ذهنية غريبة في أن يحولوا الثعبان الى
مصدر للخير ، زاعمين ان لكل بيت من البيوت ثعبانا
يتولى حراسته . فاذا لاذ بشق من شقوق المنزل فالامر
يحتاج الى استدعاء رجل نصف مبروك هو الرفاعى ،

وما كان الثعبان ليخرج الا استجابة لبعض التلاوات
ذات الصبغة الدينية ، ويا حبذا لو أكدوا - للثعبان -

ان صاحب البيت اسمه محمد ! وكل هذا لا ينبغى
بالطبع أن ينسينا ذلك الدور الخطير الذى قيل انه لعبه

ذات يوم في تقرير مصر البشر ، يوم أغوى حواء بالاكل
من الشجرة المحرمة فطرد الانسان من الجنة .

وحيوان آخر كان ضروريا أن يواجهه العقل البدائى

بشحنة عاطفية خاصة ، وذلك هو الخنزير الذى عمد
أجدادنا لسبب أو لآخر - لقبح منظره فى أغلب الظن -
الى تقديسه بطريقة عكسية ، جاعلين منه رمزا للشر
وقارنين اياه بالاله البفيض « ست » الذى قتل الهم
المحبوب اوزيريس .

فاذا ما لمس واحد منهم عفوا وجب عليه ان يسارع
بالقفز فى النهر المقدس ليتطهر ، حتى ولو تعرض لهيرة
غير متوقعة من الاله سبك !

ولا ينبغي لنا بالطبع ان ننسى الالهة القطعة المسماة
باستت ، التى رأيت بصفى من أهل الشرقية أن أفرد
لها فى مقبل الصفحات بابا خاصا .

واذا كانت حاجة العبادة على المستوى الاقليمى قد
سمحت بوجود واستمرار هذا النوع من الآلهة الحيوانية
العتيقة فقد كان الامر مختلفا مع الآلهة العامة الرسمية .

فلم يكن ممكنا لاله رسمى مثل رع أن يواصل حياته
الالهية فى هيئة صقر خالص ، بل تطلب الامر أن يجمع
فيه بين رأس الصقر وجسم رجل عادى ، كنوع من
الحل الوسط الذى طالما ارتاحت له النفسية البشرية
فى كافة العصور . وأتى بعده آمون اله طيبة ، فخطا

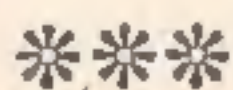
خطوة أخرى الى الامام ، اذ بدا للناس فى هيئة رجل
عادى لا يمت بأية صلة الى الحيوان . ومرة أخرى
نحاول أن نخفف من لومنا للأجداد على هذا التشخيص

للآلهة ، اذ يجب أن نذكر ان الذهن البشرى يميل الى
التدرج أكثر من ميله الى الطفرة ، لاسيما اذا ارتبط
الامر بالديانات والعقائد . واذا كانت طفولة العقل

البشرى تشبه طفولة العقل الفردى فلا بد انك تذكر كيف كان يذكر أمامك اسم الله - وأنت طفل صغير - فتتخيله فى هيئة عملاق جبار أو رجل عجوز أشيب الشعر . ولعل من العوام والسذج من يعيش ويموت وفى ذهنه عن الخالق تلك الصورة الطفولية .

واله آخر فى هيئة رجل هو أوزيريس ، أحب الآلهة الى الشعب دون أن يكون الها رسميا . رب الخضرة والنماء والخصاب ، الذى ينبثق النيل العظيم من عرق يديه . سيد الحقول الخضر وسيد النبذ الفياض ، سنابل القمح تنبت من جسمه وأعواد الشعير . اذا اكل الآكل فانما يأكل من لحمه المبارك ، واذا شرب الشارب فما ذلك النبذ الذى يشربه الا قطرات من دمه المقدس .

وفجأة حدثت الطفرة التى ندر أن تحدث ، عندما الهم اخناتون بآلهه آتون الذى لا علاقة له بأى من الانسان أو الحيوان ، أول اله مجرد تفتق عنه الذهن البشرى ، وأول دعوة للتوحيد قبل ألف سنة من أول كلمة نطق بها نبي عبرى .



هكذا انسحبت آلهة زمان العتيقة لتزوى فى أركان التاريخ المظلمة ، وعبر آلاف السنين من التفكير الدينى نجح أجدادك فى أن يبلوروا فلسفة كاملة يفسرون بها ظواهر الخلق والحياة والموت ، ووصلوا الى أفكار عديدة يمكنك أن تعتبرها - بالرغم من التفصيلات الساذجة المحيطة بها - ارهاصا بالكثير من الافكار التى يؤمن

بها المتدين العصري مسيحيا كان أو يهوديا أو مسلما ،
واليك بعض الامثلة :

توصلوا مثلا الى فكرة الاله الذى خلق نفسه بنفسه
توطئة لان يخلق الكون ، وهى فكرة بادت بها بعد
آلاف السنين كافة الاديان المشار اليها .



توصلوا الى فكرة الثالوث ، ممثلة فى بعض الآلهة
المحلية وفى الثالوث الاكبر المكون من أوريريس .
وايزيس وحورس ، فالمسيحيون كما تعلم يؤمنون بالاب
والابن ، والروح القدس . ويقول المستشرق الفرنسى
اميلينو - كما نخبرنا الدكتور نيمات أحمد فى كتابها
الملمهم «شخصية مصر» - ان روح الله القدس فى دستور
الايمان المسيحى انما يقوم مقام الالهة الام فى علم اللاهوت
المصرى .

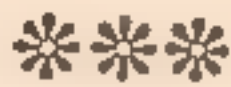


اقتربوا جدا كما يقول المؤرخون المسيحيون أنفسهم
من فكرة مسيحية أخرى هى فكرة حدوث الخلق بالكلمة
وقد كان هذا المعنى يتردد على الدوام فى اللاهوت
المصرى القديم . ولعلنا لا نحتاج الصواب اذا شبهنا
هذه الفكرة بما نرده نحن المسلمين من ان الله يقول
للشئ كن فيكون .



آمنوا - وبشدة مزعجة - بالحياة بعد الموت وبخلود
الروح . كما آمنوا بيوم الحساب وما فيه من ثواب

المحسن وعقاب للمسيء ، وسترى تفصيل ذلك في فصل
مقبل .



من كل ذلك ترى ان أجدادك لم يكونوا بلهاء كما
يحاول البعض تصويرهم ، زانه من الظلم الشديد أن
نحاكمهم على خطايا أسلافهم البدائيين . ولو أنك درست
تاريخهم الدينى لوجدت ان كثيرا من الافكار والقيم التى
تؤمن بها اليوم توشك أن تكون مجرد حصاد لنبته
زرعها العقل الفرعونى وما برحت تنمو عبر آلاف السنين .

بعد عمر طويل

إذا أنت مت في مصر الفرعونية - أو معنا لسفويل عليك إذا أنا مت - فإن أول ما يحدث هو تلك العاصفة الهوجاء التي تجتاح الحى من صوات النسوة ، الامر الذى يدل على ان مصر القديمة ليست قديمة بدرجة كبيره ! ومع الصوات يكبشن ما يتباح لهن من الطين يلطخن به وجوههن اعرابا عن حزنهن ، ويا حبذا بشيء من النيل الزرقاء ليتناعم لونها الازرق مع ما فى وجوههن من سواد الطين . ثم ينطلقن فى الطرقات كالمجانين مولولات لاطمات الخدود وقد شققن ثيابهن حتى استبابت منها الصدور ، وهو ما لابد يجعل من وفاتى فرصة طيبة للبصاصين من مراهفى الحته .

ثم يعدن الى البيت ليحبسن أنفسهن فيه مواصلا لعملية اللطم والتعديد ، غير ناسيات ان يرسلن فى استدعاء عدد من الندابات المحترفات اللواتى لا يمكن بدونهن أن يكتسب الموقف دمفته الرسمية الكاملة . ويستمر هذا الضجيج نحوا من خمسين يوما أو اكثر وهى المدة اللازمة للانتهاء من تحنيطى قبل أن اودع - ان شالله اللى يكرهنى يارب - فى غياهب القبر .

وبتمام تحنيطى ألف فى كفن من الكتان قد يبلغ طوله خمسين مترا ، وحاول أنت أن تحول هذا الرقم الى

ما يقابله من « ادراجنا » العصرية . ثم أوضع في نعش
من الخشب والنعش يوضع على محفة كبيرة يجرها
ثوران ، ويبدأ الموكب الجنائزى الذى يتصدره حملة
المباخر والزهور والاولانى الحاوية للعطور والزيوت
المقدسة والمياه . وخلف هؤلاء تسير فرقة الندابات
الاجيرات وهن يلطنن الخدود ويعددن ويذكرن مناقبى ،
وانى لأعجب كيف يجدن لى من المناقب ما يفضى
ذلك المشوار الطويل . أما ورأى فتسير اليتامى والشكالى
من أفراد أسرتى ، وما زالت وجوه النسوة بين السوداء
والزرقاء ، ورب امرأة تنحنى بين الحين والآخر لكى
تلتقط حفنة من التراب وترشها فوق رأسها زيادة منها
فى بهدلة نفسها من أجلى ، ومرة أخرى يشققن ثيابهن
حتى نستبين منها الصدور ، الامر الذى يوحى بأنهن
قد وجدن أحسن فرصة لانعزى المشروع فى عصر ما
قبل الديكولتية الفاضح .

ووراء الجميع يسير عدد من الخدم وقد حملوا الاوعية
التي تضم ماسوف أحتاج اليه فى حياتى المقبلة من طعام
وشراب وبيرة ، وأرجو ألا يكونوا قد نسوا السودانى
المملح على سبيل المزة . وعدد آخر من الخدم يحملون
ما يسمى بالاعويه الكاثوبية وهى التى تحتوى على -
لامؤاخذه فى دى الكلمة - مصارينى وأعضائى الداخلية
اذ ان هذه الاعضاء يجب ان تنزع من الجسم قبل
تحنيطه وتحنط بمفردها توطئة لدفنها فى القبر مع
صاحبها .

ويواصل الموكب سيره « لاحظ ان مناقبى بدأت

تتكرر بشدة « حتى يصل الى شاطئ النيل الغربى
حيث توجد مدينة الموتى . وكاهن يرشنى بالماء المقدس
وكاهن آخر يبخرنى ، وثالث يوشنى ويلقننى
التعاويد اللازمة لتجهيزى للحياه الجديدة . وثور فاخر
يدبحونه ويأكلونه على روحى ، والآكلة من النسايات
لا تسمى بين قطعة وأخرى أن تفقع صوتا حيانيا لكى
تثبت أن اللحم المشوى لم يلهها عن ذكر مناقبى .

ها هو ذا التابوت ينزل الى القبر مع ملحقاته من
الاورعية ، وها هو ذا القبر يقفل على الابد . وفى
الخارج يقفون لوصلة أخيرة من اللطم على الخدود
والتعديد . وقبل أن ينصرفوا لا ينسون اتخاذ اجراء
أعتقد أنه يتنافى بشدة مع كل هذه المظاهر الحزينة ،
وذلك بأن يكسروا بجانب القبر قلة . فهى كما قيل حيلة
سحرية تمنعنى من أن أغادر القبر وأعود الى البيت
لأزعاجهم ، وهى حيلة لا يبعد أن تكون قد استخدمتها
أكثر من مرة وأنت تودع حماتك على محطة السكة
الحديد .

هى يعودون الى البيت وأنا أشرع فى رحلتى الجديدة
الى مملكة أوزيريس فى العالم السفلى ، ويا لها من
رحلة طويلة رهيبه مضمية . بين جزر من الذهب يجب
أن أعبرها وبحيرات من ماء مفلى ، وبين عشرات من
البوابات التى يجب أن أجتازها متحديا عشرات من
حراسها الأشداء القساة .

وفى النهاية أجد نفسى فى قاعة المحاكمة الاوزيرية
الرهيبه التى تفحص عن امرى وتصدر على حكمها

الابدى . على رأس المحكمة يتربع أوزيريس اله الموتى ،
ومن خلفه يقف انوبيس وايزيس ونفتيس . وحوال
اوزيريس يجلس اثنان وأربعون قاضيا قيل انهم من آلهة
الدرجة الثانية وقيل انهم ارواح شريرة تمثل الاقاليم
الادارية للبلاد . وغير بعيد منهم تقف غولة رهيبة لها
رأس تمساح وبطن أسد ومؤخرة سبد قشطة واسمها
— يا مامى ! — الملتهمة . وذلك لانه ما أن يصدر حكم
المحكمة ضدى حتى تنقض على وتروح وكلانى هم . . هم . .
وما بين هذه الغولة والارواح الشريرة التى تملأ المحكمة
يمكنك أن تدرك مدى العبقرية التى استخدمها الكهنة
الخبثاء فى ارهاب الميت المصرى .

واما عن الاجراءات فتبدأ بانشاء الطبيعى وهو أن
أتقدم من منصة أوزيريس لكى ألقى بكلمة نفاذ
مناسبة .

— الولاء لك أيها الاله العظيم ، يا سيد قاعة الصدى
المزدوجه . . لقد حضرت ياسيدى لكى أشاهد جمالك .
ولكى أحمل الاستقامة من أجلك من بعد الخطيئة . .

وكلمات أخرى من هذا النوع ثم أشرع فى تلك العملية
العسيرة بعض الشيء وهى أن أبرئ نفسى من انتين
وأربعين خطيئة . وحيث أن كل اله من الآلهة الصفار
المحيطين بأوزيريس متخصص فى خطيئة معينة فأننى
أشرع فى مخاطبتهم واحدا واحدا :

— تحية يا طويل الخطا ، أيها القادم من ايونو . .
أنا لم أرتكب اثما .

ثم أتوجه الى الذى يليه :

— تحية يا ملتهم الظلال .. أيها القادم من جوف
المفارة .. أنا لم أسرق أحدا .

ثم أنتقل الى الثالث :

— تحية يامزدوج الشر .. أنا لم أرنكب الزنا .

ومتجاهلا تلك البسمة الخبيثة التي ترسم على وجه
مزدوج الشر أنتقل الى الرابع والخامس وما بعدهما ،
بين واحد اسمه سارق النار وآخر اسمه مهشم العظام
وثالث اسمه والعياذ بالله ملتهم الأمعاء ، قائلا اننى قد
قتلت ولا سرقت ولا زنيت ولا غششت الناس ولا طلفت
المكيال ولا هاجمت الانسان ولا آذيت الحيوان ، ولا
كنت غضوبا ولا أثرت عراقا ولا رددت سوءا ولا زدت
في الحديث المعاد ، ولا سخرت من ملكى أو من اله
مدستى ، ولا تسرعت فى الحكم ولا صممت أذنى عن
الحق ، ولا رفعت صوتى ولا سعيت الى تفرقة ، ولا
أنلفت أرضا محروثة ولا لوثت المياه .. وفى النهاية يكون
من الطبيعى أن أقف أمام أوزيريس صارخا بالهستيريا
المناسبة :

— أنا طاهر ! أنا طاهر ! أنا طاهر !

فينظر أوزيريس الى نظرة الهية خاصة ، وهذا يتوجه
فى صمت الى حيث نصبت موازين رع ، فى إحدى الكفتين
يضع ريشة هى رمز الصدق ، وفى الأخرى يضع قلبى
الذى أعجب كيف يوجد هناك وهو يدق كالطبل فى
صدرى . الميزان يتأرجح وأنا أرتعد خوفا ، فى تلك
اللحظات الرهيبة التى تحدد مصيرى الى الأبد .. أما
أنأظفر بالخلد فى جنات أوزيريس حيث الربيع الدائم ،

واما أن أغيب في رأس التمساح وبطن الاسد لكى ألهظ
من مؤخره سيد قشطه ! ومن ثم فأنا أهمهم من أعماك
قلبي المعذب بدعاء علمونى آياه وأنا صغير :

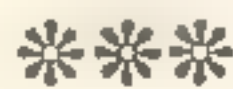
— يا قلبى الذى أتى من أمى .. يا قلبى الذى ينتمى
الى كيانى .. لا تقف شاهدا ضدى .. ولا تكن معاديا
لى أمام سيد الموازين .

وسيد الموازين هو الاله تحوت الذى يقف بجانب
الميزان فى لا مبالاة .

والاله تحوت هذا روتينى . يداعب الميزان بيده
على صوت تلمظ رهيب من الفولة الجائعة . فيا لها
من فرحة تهز كيانى من الاعماق عندما يأتينى صوت
سيد الموازين وهو يتنحى بالوقار اللازم قبل أن يقول :

— فى الواقع لقد حاكت قلبه فوجدت انه غير ذى
خطيئة .. لن نعطيه للملتهمة بل سنعطيه من الخبز
الذى أمام أوزيريس .

ولقمة مقدسة نلقى الى فانقض عليها كالمسحور ، شاكرا
من أعماق قلبى الموزون تلك الظروف السعيدة التى
أرسلتنى الى المحكمة فى يوم تحت يحتاج فيه الاصلاح بهذه
الشدة . وبينما نتابعنى عيون الملهمة بنظرات الحقد
أتحنجل أنا بخفة متجها الى جنات عدن حيث الخضرة
الدائمة والرزق الابدى الوفير .



ولجنة أوزيريس ميزة خاصة هى اننى أستطيع
مغادرتها فى أى وقت وأن أعود منها الى قبرى كلما طلع
ذلك فى دماغى . وأنا أفعل ذلك غالباً فى المواسم والاعياد،

حيث أجلس في قبرى متفرجا بالسخرية المناسبة على
المناحة الدائرة في الخارج بين أفراد أسرني . فهم بالطبع
لا ينسون أن يطلعوا على كل عيد وهم يحملون الكعك
والفطائر التي يأكلون منها على روى ويوزعون ما فاض
على الفقراء . وهم يعرفون أنني هناك وهم فرحون بى .
الا أولئك الذين يظنون بى السوء ويعتقدون أنني
أرقد في جوف الغولة الملتهمة وأنى محيت من الوجود .

وأرجو أن تكون حياتى بما فيها من فضائل أعتز بها
ورذائل أتبرا منها ، ثم وفاتى وجنازتى ودفنى ومحاكمتى
وخلودى ، أرجو أن يكون كل ذلك قد أثبت عندك ما
قلته من البداية من أن مصر القديمة ليست قديمة بالقدر
الذى يتصوره البعض ، وانه أيا ما كان العنوان الذى
تقول بطاقتك الشخصية أنك تسكن فيه فأنت في واقع
الامر لست تسكن الا في مصر القديمة .

باستت نو

لا أحد يعرف على وجه التحقيق كيف ولا متى تم
للفراعنة استئناس القط ، بعد الدهور الطويلة التي
عاشها في حال من الحرية الوحشية في برارى الدلتا .
ومن ثم فليست أجد ما يمنعني من اللجوء الى الاجتهاد
الشخصي في تفسير الامر ، سارحا بخيالي الى ليلة من
ليالي الصيف خرج فيها الطفل حوريس ليلعب في
البرارى المذكورة ، ومن خلال أعواد البوص رأى بؤرتين
خضراوين تلمعان في الظلام فخاف وجرى نحو أمه
أيزيس .

- أيه ده يا ماما ؟

- ده قط يا حبيبى ..

هكذا قالت له أيزيس وهى تطبطب عليه ، فقال :

- عاوز منه ...

- بس كده يا روحى ؟

وبعد مهمة سحرية موجزة بسبست للقط ، فقال
نو ، وأقبل وقد طارت عنه آثار الوحشية لكى يتمسح
في ساق حوريس . ولست أدري كيف فشل المورخون
في العثور على هذا التفسير السهل للطريقة التي ته
بها استئناس القط المصرى القديم .

واذا تركنا الاجتهاد الشخصي جانبا ، فقد كان عند

الفراعنة آلهة لها جسم سيدة ورأس قط واسمها باست ، ومعنى هذه الكلمة كما يقول المفسرون « روح الالهة ايزيس » . وهى الالهة قديمة جدا أسوم خوفاً بنفسه فى بناء معبد لها فى مدينة بوباسطى التى تعرف اليوم بتل بسطة من أعمال الشرقية . اذ كانت تلك المدينة هى المركز الرئيسى لعبادة السيدة باست ، ولعلها ما ظهرت فى هذا المكان من الشرقية إلا كنوع من البديل الفرعونى لدعوة القطارات الى الغداء . وكان القط كما زعم عباده رمزا مجسما لاله الشمس رع ، فيه يتمثل هذا الاله كما تقول متون الاهرام بأرواحه السبع . وحيث ان حديقة القط تتسع بانتظام مع دورة القمر - هكذا لاحظ العباد - فهو على ذلك صاحب مجد مزدوج يستمد من كل من الشمس والقمر . وكانت ذروة ذلك المجد فى الاسرة الثانية والعشرين عندما قرر امير بوباسطس أن يتحول من أمير الى فرعون للبلاد باسم شيشاق الاول ، فتحول القط بدوره من اله محلى الى اله للبلاد كلها ، وبالعظمة المناسبة سار يتبختر فى الطرقات بين أكداس الطعام التى يقدمونها له كلما قال : نو ..

غير ان المجد كما تعلم شئ لا يدوم ، ومع التطور كان محكوما على بسبس أن يتحول من اله الى حيوان عادى ، الامر الذى لا أشك انه قد وصل به فى بعض الاحيان الى حافة الانهيار العصبى . ولكنه بالطبع ما برح أن تأقلم واستكان للوضع الجديد . ولعل هذا التمسح الذى نعرفه عن القطط ما هو إلا نوع من العتاب

الصامت والتحسر الدليل على المجد الذى سلبناه اياه .

ولكن هل فقد القط المصرى كل مجده حقا ؟ أمر مشكوك فيه جدا بدليل عشرات العقائد والعواطف التى نختصه بها من دون سائر الحيوانات ، وحسبك انه الحيوان الوحيد الذى احتفظ الى يومنا هذا بسبع ارواح . الالف السنين مرت على موت اله الشمس رع وما زالت ارواحه السبع تسكن جسم القط المصرى المعاصر . فاذا ما عضك كلب فذلك لانه مسعور ، واذا ماعضك حمار فذلك لانه حمار ، وأما اذا ما هاجمك قط فذلك لان فيه روحا شريرة او لانه والعياذ بالله عفريت متنكر فى صورة قط .

وفى اوائل هذا القرن العشرين قالت لى أمى : ان القط الاسود يجلب النحس ، وحذرتنى من أن أضرب القطط بصرف النظر عن لونها بعد غروب رع - اعنى غروب الشمس . فاذا جلس القط على حجرى وبدأ يحدث صوتا فهى تؤكد لى انه يردد بعض التلاوات ذات الصبغة الدينية ، الامر الذى يحتم على الالقى به على الارض فجأة كى لا أفسد صلاته .

وهكذا أتت على اوقات كنت اجلس فيها بالساعة وهذا الوغد على حجرى لا يريد أن يتحرك ، مواصلا قراءته وكلما مددت يدى لارفعه زام وأفزعنى . فاذا سمعت أمى قطعة تجعر فى الطريق باحثة عن الذكر فهى تفسر ذلك العواء بأن القطعة تقول : داود ، مضافة بذلك على الموقف - أمى لا القطعة - لمسة عبرية لا أجد فيها مناسبة واضحة .

والقط هو الحيوان الوحيد الذى يفترض الناس فيه حاسة أخلاقية يجب أن يرتفع على الدوام الى مستواها. ولذلك فهم ينزعجون بشدة عندما تخطف القطعة قطعة من اللحم من طبق ، مثبتة بذلك انها قطعة خرجت عن جادة الاخلاق وانحرفت وصارت قطعة حرامية تستحق ان يوقع عليها حد السرقة . وقطة من هذا النوع - وسوداء ايضا - اذكر كيف طاردها أنا وأمى بالمشات فى أنحاء البيت حتى أجبرناها على أن تقفز من نافذة الدور الثالث ، عالين أن الأمر لن يضرها وأن السقطة ان تفقدها أكثر من روح واحدة أو اثنتين فيبقى لها خمس . وكذلك يقول الناس عنك اذا لم تحفظ الجميل انك مثل القطط تأكل وتنكر ، معربين بذلك عن تخيلهم للقط المثالى الذى تعطيه قطعة اللحم فيقول لك ألف شكر يابيه ربنا ما بحرمننا منك !

ولقد تتجسم هذه المشاعر فى نفوس بعض الناس حتى تحول القط من حيوان عادى الى كائن غريب تمتزج فيه كافة صفات النمر والذئب والخنزير بما ترمز اليه من شراسة وغدر ونجاسة . رانى لاذكر رجلا من هذا النوع أتى يوما يزورنا ، وبينما هو مشغول بالحديث دخلت قطتنا السوداء دون أن يشعر بها ووقفت تتفرج عليه وتستمتع اليه . فيبدو ان شيئا من كلامه أعجبها « أنا أعترف انها قطعة سبئة الذوق نوعا » واذا بها تفاوله - دون أن تكون قد رآته من قبل - وتقفز على فخذه اسكى تجلس على حجره .

هى بالطبع كانت تتوقع من الرجل أن يفرح بهذه

اللفتة الكريمة وأن يشرع في التجسيس عليها
والاستماع الى شيء من قراءاتها ، ولكن الذى حدث
هو العكس تماما . اذ صرخ الرجل في فزع شديد
وقفز من مقعده قفزة كادت تكلفنى ثمن نجفة جديدة
للصالون ، ودفع القطعة عن حجره دفعة قوية ألقت بها
على الارض بعد أن هبسته في فخذه هبشة مناسبة .
ولمدة دقيقة جلس الرجل ينظف بنظاونه بيده وهو يهمهم
بتلاوات لم أتبينها ولكننى أثق بأنها معادية لجنس
القطط ، ثم شرع يشرح لنا - وهو يلهث - أن أبغض
مخلوقات الله الى نفسه القطط ، وان ذلك لا يرجع
لا قدر الله الى ان عنده عقدة نفسية أو ماشابه ذلك .
وانما لشقته التامة بأنه بين كل سبع أرواح للقطعة يجب
ان توجد خمس شريرات على الاقل .

وفي مقابل هذا النوع اللافظطى من الناس خذنى اذا
الذى لا يمكن ان أطيق الحباء بدون قطتين أو ثلاث في
البيت . . نعم ، هى تنونو بالليل فى بعض الاحيان
وتزعجنى ، وهى على الدوام تطاردنى وتكعبلنى كلما
فتحت باب الشلاجة ، بالاضافة الى انها تمنعنى من ان
أمصص العظام حق المصصة ، ولكننى بالرغم من
كل ذلك لا أحب ان أعيش بدوتها .

ويقول المؤرخون ان مصر لم تصدر القط الى أوروبا
كفصيلة حيوانية فحسب وانما كاله أيضا ، وان الالهة
الرومانية « ارتميس » ما هى الا صورة محورة للالهة
المصرية باستت . ومن ثم فقد انتقل القط الى الاوربيين
مقرونا بتلك الشحنة النفسية المليئة بالعواطف المتناقضة

بين حب له وخوف منه ، وكثيرا ما شاهدت العيادات النفسية هناك حالات لاناس يعانون من العقد القططية الحادة .

وفي ذات يوم راح واحد من الخواجات بمارس عادة غريبة بعض الشيء ، وهى دحك ظهر القطعة بشدة حتى يقف شعرها وتنفس وتصبح أشبه بالقنفذ . فليس من شك فى ان هذا الرجل كان يعانى من ذلك المزيج المتناقض الذى أشرنا اليه من الحب والكراهة ، وأنه كان يظن انه يداعب القطعة فى حين انه يعذبها . ذلك الرجل هو المخترع اديسون الذى يقال انه قد استلهم من تلك العلاقة بين دحك ظهر القطعة ووقوف شعرها نظرية خاصة بالمفناطيسية والكهرباء وطلع منها بفكرة المصباح الكهربائى . فاذا صح هذا فيبدو أن رع كان الها للشمس والكهرباء أيضا ، وهو دليل على ما أردده طوال هذه الاحاديث من ان مصر كانت دائما مصدر الاشعاع !

القراءة والجنس

ذكر وأنثى

من نافذة القطار الذى يقع بك وسط حقلنا
الخضراء لابد انك رأيت أكثر من مرة ذلك الطفل الشقي
الذى يقف على السكة الزراعية وقد رفع ذبل جلبابه
الى أعلى لكي يعرض عليك وعلى سائر ركاب القطار
بعض أسرارهِ الخاصة ، علما انك لن تستطيع أن توقف
القطار المسرع لكي تنزل وتضربه ، ومستبعدا أن
تبلغ بك الحماسة التربوية درجة أن تلقى بنفسك من
القطار في سبيل تحقيق تلك الغاية .

ذلك الطفل ليس موجودا في مصر فحسب ، بل وفي
أوربا أيضا ، بدليل ماكتبه عنه السيد فرويد مستشهدا
به كمثال من الأمثلة العديدة التي تؤيد وجود مايسميه
بالميل الفطري للاستعراض الجنسي . وهو في تلك المرحلة
الطفولية ميل طبيعي لا غبار عليه ، إلا أنه مع الكبح
الشديد وفي ظروف خاصة يمكن أن تحدث له حالة من
الثبوت تحول صاحبه حين يكبر الى رجل مريض بداء
الاستعراض . ورب عذراء تسير في طريق مقطوع فتعاجأ
برجل يعرض عليها من شئونه الخاصة ما كان يحتاج
في عرضه الى تصريح من الجهات المسئولة ، معرضا
نفسه بذلك للسجن والبهدة . وهو مرض يصيب
الكثيرين ومن بينهم الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو

الذى اعترف بأنه كان يستسلم لهذا الداء في الاوقات
التى لم يكن مشغولا فيها بالتمهيد للثورة الفرنسية .

مثل هذا الرجل الذى قد يوجد فى أى مكان لا اظن
انه قد وجد قط فى مصر الفرعونية ، وذلك لسبب ممعن
فى البساطة وهو ان الكائن الفرعونى كان يعيش فى
حال من الاستعراض المتواصل ؛

لان الملابس لم تظهر فى رسوم الطفل الفرعونى الا
فى احيان نادرة جدا . وفى معظم الاوقات كان الطفل
والطفلة يسيران بين الناس حارين كما ولدتهما أمهما .
يوما بعد يوم تحت شمسنا المشرقة يتبخر منهما ذلك
الميل الفطرى للاستعراض ، فلماذا يحدث ذلك الثبوت
المرضى الذى سلفت الاشارة اليه ؟

ويوما بعد يوم يطلع أولئك الاطفال العراة على الفروق
التشريحية بين الذكر والانثى ، فلا يمكن أن يكون قد
حدث للطفل الفرعونى ما حدث لآخيه المتحضر بين
الحين والآخر من صدمة الاكتشاف ، ومن التورط فى
تفسيرات طفولية مؤذية . ولا بد انهم قد وجهوا للكبار
من حولهم أسئلة كثيرة ، ولا بد ان أولئك الكبار قد
أجابوهم بالصراحة المناسبة لذلك الموقف العارى . وبينما
كانوا يلعبون ويمرحون فى الحقول والحدائق الخضراء لا يمكن
أن تكون أعابهم قد خلت من الخلفية الجنسية التى
لا مفر منها فى تلك الظروف ، الامر الذى يستبعد معه
ان تكون كلمة الكبت قد عرفت طريقها الى القاموس
الهيروغليفى . فأغلب الظن وفقا لذلك انه لو خطر
لفرويد أن يفتح عيادة نفسية أو طبية فى منف لاضطر

أن يرهن كنبته الشهيرة في أقل من عام .

فاذا كبر الطفل الفرعوني وصار غلاما فهو لا يكلف بارتداء شيء أكثر من أزار صغير يشبه الجونلة التي لا تتدلى في معظم الاحيان الى أبعد من الركبتين . . . وذلك طبعاً اذا كان معه ثمن الجونلة . فاذا تصادف ان

كان غلاما فقيراً أو فلاحاً أو راعياً أو صياداً فليس يطلب منه أكثر من حزام تتدلى منه رقعة من الكتان ما نجحت قط - وفقاً لما نراه في الرسوم - في ان تخفي

شيئاً من حقائق الحياة . واما الصدر فهو شيء لم يفكر المصري القديم في اخفائه في أى يوم ، فرعونا عظيمًا كان أو صائد سمك . ولن نجد في آثار الامم القديمة نظيراً

لتلك الاكتاف العريضة والسواعد المفتولة ، سواعد الشعب الذى قطع ونقل ونحت ورفع وسوى مليونين ونصف مليون من الاحجار العملاقة لكى يبنى بها هرمًا

وتكبر الطفلة العارية ويبرر في الصدر نهداها فيدفعون اليها بمئزر تلفه حول جسمها بادئا في كثير من الاحيان من تحت النهدين لا من فوئهما ، أشبه شيء ببسات

تاهيتى كما تراهن في رسوم جوجان . وحمالتان رفيفتان ترفعان هذا الفستان وتمسكانه حول الجيد الاسمر

النحيل ، وحزام يشد تحت النهدين الفخورين كأنما هو خط يضعه كاتب المقال تحت احدى العبارات الهامة ! والفستان نفسه ضيق أشد الضيق ، خفيف كما تقول

الرسوم حتى ليوشك ان يكون شفافاً . فاذا كانت البنت خادمة - معذرة أعنى شغالة - أو ساقية أو راقصة - فهي لا تخرج من حيث حجم الثياب عن كونها ازهاصاً

بمرحلة كسائية مقبلة تسمى - ربنا يدك طولة العمر -
بالمحلة الميكروبيكينية .

كانوا يحبون الجسم البشرى بشدة هؤلاء الخبيثاء
بناة أولى الحضارات ، وكانوا يرون قدرة الآلهة ممثلة
في ذلك الجسم بما فيه من امكانيات خالقة . فخصوبة
الجسم مثل خصوبة الارض أمر مطلوب ومحترم ويوشك
ان يكون مقدسا . ولقد مات اوزيريس فكرهوا ان تموت
معه خصوبته ، وصوروا مومياءه في تلك الصورة التي
تجعله - حتى بعد الموت - مستعدا للاخصاب في اية
لحظة ! والى جانب اوزيريس كان هناك الاله « مين »
الذى ترى صورته في معبد الراسيوم وغيره ، والذى
صوروه بدرجة من الصراحة التشريحية طالما ارسلت
الدم الغزير في وجه اكثر من عانس أو سائحة عذراء
اذا تصادف وجود شيء من هذا النوع .

وفي رسوم الاله « مين » هذا ، يجب ان يظهر نبات
الخنس الذى نظر اليه اجدادك بنوع من التقديس لما
نسبوه اليه من قيمة جنسية خاصة وعاملوه كمعادن
نباتى للجفرين .

وفى هذا الجو المتحرر لا بد أن الغلام الفرعونى كان
يفاجأ بشدة فى ذلك اليوم العصيب ، يوم يقولون له انه
يجب أن يسلم نفسه لعملية الختان . فهى قديمة جدا
تلك العادة كما ترى ، ويمكنك أن ترى الصورة التى
رسموها له - ان شئت - اذا خطفت رجلك الى معبد
« خونس » بالكرك . وهى عادة يغلب الظن أن
المصريين استعاروها ممن حولهم من الشعوب السامية

في وقت سحيق قبل عصر الاسرات . وعلى العكس من
العبريين الذين حتموا اجراء تلك العملية بعد الميلاد بقليل
كان المصريون يرون تأخيرها الى سن العاشرة أو مابعدھا ،
لتكون بمثابة شهادة للطفل بأنه قد شب عن الطوق ودخل
في زمرة البالغين . ومن المفسرين من يصف تلك العملية
بأنھا نوع من الرمز لعملية تاريخية قديمة سابقة وهي
ذبح بعض الاطفال على سبيل القرابين . وثمة رأى
آخر يقول انها بديل لعملية الاستئصال الكامل التي
ربما يكون بعض الآباء البدائيين قد حكموا بها على اولادهم
الذكور خوفا منهم على اناث القبيلة .

ومهما كان الامر فلست اجد صعوبة في تحيل النظرة
الماكرة التي لا بد انها تراءت في عين الكاهن وهو يقبل
بالمشرط على ضحيته وكأنه يقول :

— أشكر آمون على اننا سنكتفي باستئصال تلك
العينة الصغيرة ، واذكر دائما اننا نستطيع حين نشاء
أن نستأصل كل شيء !

غير ان الكهنة قد وجدوا من الذرائع ما جعلهم يعفون
البعض من تلك العملية على سبيل الاستثناء . وهذا
يذكرني بما حدث للسيد « بونا براحتة » عندما حاول
خلال الحملة الفرنسية أن يشهر اسلامه تقريبا للمصريين ،
فلما قيل له ان تلك العملية شرط من الشروط المطلوبة
قال : الا دى ! وسرعان ما وجد من يقول انها عملية
ثانوية ، لا يمكن أن تؤثر على صحة دين الجنرال الوريح .

غير ان هذه العملية لا يمكن أن تكون قد آذت الفتى
الفرعونى كثيرا ، اذ كانت كما رأيت تؤجل الى السن

الذى يستطيع فيه أن يفهم ما يساق اليه من تبريرات
أو على الأقل يتظاهر بالفهم * ولا شك انها كانت هينة
فى نظره عند مقارنتها بصورة شراذم الاغوات الذين
يتشاءبون على أبواب حريم الملك والنبلاء .

والغلام الذى يدخل فى زمرة الكبار يبدأ مثلهم بالحب
والهيام ، ومن أعماق روحه الفرعونية المعذبة يهتف قائلا :

— على فراش الضنى أرقد طول يومى .. يعودنى
الجيران والأطباء وما ينفعنى أحد منهم ، آه لو تأتى
حبىبتى معهم ، فهى التى تعرف دائى وفى يدها دوائى .

نفس الاعراض المرضية التى نعرفها عن العاشق
العصرى ، ولنستمع الآن الى هذه العاشقة المهجورة .

— ضاع ! ضاع ! ضاع . آه يا حبى الذى ضاع ..
ان حبيبى يمر أمام بيتى فيشيخ بوجهه عنى ... أزين
له نفسى وما يرانى . فىا الهى هل ضاعت صلواتى
وقرايىنى هباء ؟ كم كان حلوا حبيبى ، أحلى من مذاق
العسل .. قبلاته على شفتى وعلى صدرى وشعرى ..
إذا مت يا حبيبى فاحضر الى قبرى وقبلنى .. فسوف
تردنى قبلتك الى الحياة .



وعاشق آخر محروم يتأوه قائلا :

— آه لو كنت خاتما فى أصبع حبىبتى .. آه لو كنت
جارية عندها حتى أرى لون أعضائها كل يوم .. آه
لو كنت غسالة لديها حتى أنعم بملامسة كافة ملابسها .

وبنت فرعونية « مضروبة » تقول لحبيبها :

— آه ما أجمل أن أستحم في النهر على مرأى منك . .
لكى تبصرنى وقد بلل الماء فستانى الجميل فالتصق
بجسمى المشوق .

فهى لم تكتف بالفستان الضيق الشفاف فأرادت له
أن يلتصق بثنايا جسمها أيضا .

وأناشيد أخرى كنت أحب أن أسوقها اليك لولا
ما يشيع فيها من ملامسات ومداعبات جسدية جريئة
لايمكنك أن تحتملها وقد فقدت تلك الاعصاب الفرعونية
الحامية .

وانى لأقرأ هذا الكلام عن الفراعنة فأرى شيها كبيرا
بين هذه المواقف الجنسية الجريئة وبين ما نشاهده
اليوم في أوربا وأمريكا من نزعة تحررية متطرفة ، كأن
هذه السمة لا مفر منها فى كانه الحضارات حين تزدهر .



ولا يمكنك بالطبع أن تنكر ان الانجازات الحضارية
للفراعنة لا تقل فى روعتها عن انجازات الحضارة العصرية
واذا كانت أوربا هى مؤسسه العلوم الحديثه فلا تنس
ان مصر هى صانعة الابدعية التى يكتبون بها علومهم .
واذا كنا نتحدث عن الثورة الصناعية فى أوربا فيمكنك
بكل بساطة أن نتحدث عن الثورة الزراعية فى مصر
القديمة . فلا شك ان اكتشاف الزراعة قد أحدث فى
المجتمع المصرى انقلابا شاملا لا يفترق عن الانقلاب
الذى أحدثته الثورة الصناعية فى المجتمع الاوربى .

فاسرح معى بخيالك الى عهد أجدادك العظام ، وقل

سلام على ذلك الجسم الاسمر القوي المتخفف الذى
وقف فى الشمس الحامية عاما بعد عام لكى يبنى اهراما
ثلاثة خالدة ، بين حين وآخر يتوقف ليمسح العرق
عن جبينه بساعد أسمر مفتول ، وجرعة كبيرة من
البيرة الساقة يتقبلها شاكرا من ساقية سمراء باسمه
تلبس البكىنى .

الحب والزواج

لم يكن محكوما على المراهق الفرعوني أن يقضى مدة طويلة في نظم أشعار الفزل في بنت الجيران ، الأمر الذي إن كان قد أضر بفن الشعر عند الفراعنة فقد كان مفيدا للمراهق نفسه . وما أظن أنه قد اختلى وحده في حجرة مظلمة مقفلة وراح يتمرغ كحفيدة المعاصر في أحلام الجنس المحمومة ، ولا ينتهز فرصة الزحام في أعياد آمون لكي يقترب من الإناث أكثر مما ينبغي . فكل هذه الانحرافات لا يمكن أن تكون قد وجدت في مجتمع يؤمن بتلك الفكرة الغريبة عن الوقت الذي يجب أن يتزوج فيه الفتى ، وهو ذلك الوقت الذي يشعر فيه الفتى أنه يريد أن يتزوج !

في الخامسة عشرة أو أقل يبدأ الفتى في الشمشمة بأنفه الفرعونية الحساسة بحثا عن بنت الحلال ، وما أن يقع اختيـاره على قطقوطة من بنات الجيران أو الأقارب حتى يبتسم أهله في سرور قائلين : على بركة أوزيريس . فإذا كانت أنفه أبلد من أن تتبعب الرائحة إلى مصدرها فهناك تلك السيدة الطيبة المسماة بالخاطبة ، التي قد يخيل اليك أنها اختراع عصرى في حين أنه قد مر عليها أكثر من أربعة آلاف عام وهي تباشر على أرضنا الخضراء تلك الوظيفة الرهيبة .

وإذا تمت الخطبة فان ذلك الوغد الفرعوني لا يكسب القطقوطة فحسب وانما يكسب بعض الفلوس أيضا ، اذ كان أهلها بمقتضى العرف يدفعون له مبلغا من المال على سبيل الدوطة ، فى تلك الايام البعيدة الحلوة التى كان الناس فيها يعرفون قبمة الذكورة . والخطبة لا تستلزم أن يتم الزواج بعدها فورا وخبط لزق ، بل كان يجوز أن تعقبها فترة من التجربة المتبادلة قد تصل الى عام . واذا كانت الآثار لم تقدم لنا كل التفاصيل عن نوع تلك التجربة ومداهها فلسنا نشك فى انها كانت تجربة مفيدة لكل من الطرفين . فلئن يجرب الفتى فتاته قبل الزواج خير له ولها من أن يتزوجها بدون تجربة و «هما وبختهم» ، ولئن يتزوجها وهو يريد لها بعد نجاح التجربة أن تشاركه حياته خير له من أن يتزوجها لمجرد انه يريد أن تشاركه فراشه .

وكان الفراعنة فيما يبدو قوما دوغرى لا يحبون التمويه ولا التقدم بوعود لايزمعون تحقيقها ، ومن ثم أتى عقد الزواج بهذه الصورة الواقعية التى تضع كل شئ على بلاطة ، اذ يقول العريس للعروس :

— لقد اتخذتك زوجة وللأطفال الذين تلدينهم كل ما أملك . ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهريا وسنوياً ، وسأعطيك حاجتك من الزيت والنبيد والفضة لزوم زينتك . فاذا طردتك فسوف أدفع لك خمسين قطعة من الفضة ، ومائة قطعة اذا أنا تزوجت عليك قطقوطة أخرى .

بهذه الطريقة ومن البداية تعرف العروس موقفها

بوضوح تام ، ذلك الموقف الذى أعلنت قبوله أمام ستة عشر شاهدا من الاهل والاصدقاء . العريس قد اعترف بخط يده بأنه رجل فارغ العين وأنه لا يعتزم بالمرّة أن يكون لعروسه وحدها . والعروس نفسها تعترف بمعرفته ذلك ولا تعترض عليه ، مكتفية بالتعويضات المنصوص عليها ، فى واقعية فرعونية لذيدة حقا . وأنا وان كنت لا أعرف كم تساوى بنقدنا المصرى تلك المائة قطعة من الفضة فأنسى اعتقد انه مبلغ لا بأس به أبدا . وغير بعيد أن يكون ذلك المبلغ قد أغرى أكثر من زوجة فرعونية عاقلة بأن تبحث لزوجها بنفسها عن عروس جديدة تفك بها ضيقها كلما زنت فى قرشين .



ولم يكن تعدد الزوجات هو الحق الوحيد المتاح للذكر الفرعونى فارغ العين ، بل كان من حقه فى الوقت نفسه أن « يتسرى » اذا كان قادرا على دفع ثمن التسرى . فكانت بيوت الاغنياء مليئة بالجوارى الحسنات اللاتى يبرطع الفتى بينهن فى حرية كاملة ، واذا ما ولدت الجارية ولدا فهو ينسب لها لا للوعد المفجوع .

واذا أدهشك هذا اتسامح العاطفى من جانب الزوجة الفرعونية فاعلم انه لم يكن شيئا لله ، ولعله نوع من الرشوة للذكر الفرعونى كى يترك المرأة الفرعونية تواصل الاستمتاع بالمزايا الاقتصادية الهائلة التى ورثتها من المجتمع الامومى القديم . فقد كانت الاملاك العقارية تنتقل من الام الى ابنتها فى خط حريمى متواصل ، وليس للزوج سوى حق الانتفاع بتلك الاملاك طوال حياة

زوجته . فاذا ماتت الزوجة آلت الملكية الى ابنتها التي
 يمكنها « بايعاز من زوجها » طرد السيد الوالد من
 البيت . فاذا كنت تجد اليوم في ريفنا أنثى اسمها ست
 الدار فقد كان هذا هو الاسم الذي يطلق على ربة البيت
 الفرعونية ، وكان كما نرى اسما على مسمى . وكذلك
 الحال اذا قابلت فتاة ريفية اسمها ست أبوها ، فنفس
 هذا الاسم كان يطلق على البنت الفرعونية التي كانت
 ست أبيها فعلا لا اسما . فتلك الحرية كانت نوعا من
 التحذير للذكر الفرعوني ، كي ينهمك في نزوانه الجنسية
 ولا يتجه ذهنه الى التفكير الاقتصادي .

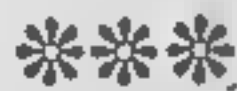


واذا أنت أحصيت القلائد والاسـاور والاقراط
 والخواتم والمكاحل والمراد والامشاط وأوعية أحمر
 الشفاه وطلاء الاظافر والباروكات التي وجدت في قبور
 الفراعنة لادركت مدى البحيحة التي كانت تعيش فيها
 المرأة الفرعونية . فهي الاخرى كانت تحب أن تنزه
 نفسها ، وما كانت تقل في ذلك عن أى سيدة مجتمع
 عصرية . فاذا بدأ السمر ودارت الانخاب فهي مع الرجال
 كأسا بكأس ، وثمة امرأة تركت أثرا يقول على لسانها :

— أن جوفى من شدة الظمأ مثل القش ، اعطنى ١٨
 قدحا من النبيذ لكى أشرب حتى أنتشى !

وفي تلك الظروف النشوى لا بد أن تكون الزوجة قد
 تورطت في بعض نزواتها الخاصة التي لم ينتبه اليها
 الزوج المشغول بأعباء الحريم ، أو التي انتبه اليها ولكنه
 فضل أن « يطنش » ! فرجل يستمتع بكل تلك الحريات

ربما كان أقدر على تفهم الضعف البشرى عند الآخرين .
وكل هذا لا يعنى بالطبع ان المرأة الفرعونية كان لها
شئ من حريات زوجها ، وقد كانوا ينظرون الى الزوجة
الزانية نظرتنا اليها اليوم . واذا كانت الزانية العصرية
تعاقب بالسجن سنتين أو ثلاث سنوات فقد كان المزاج الفرعونى
أحمى بكثير من المزاج الفرنسى الذى أنجب قانون نابليون .
فمن الآثار ما يحكى لنا عن زانية فرعونية أحرقت بالنار
وعن أخرى قطع جسمها ووزعت أجزاؤه على كلاب
الحى . وكان على شريكها أن يلقى مصيرا مشابها هو
القاؤه طعاما للتماسيح الجائعة فى النيل السعيد . وهو
مصر اعتقد انه يستحقه عن جدارة ، أفلم يشبع من
زوجاته وجواريه حتى يذهب للعبث فى بيوت الآخرين ؟



وعلى أى حال لا أظن ان الزوجة الفرعونية كانت فى
حاجة شديدة الى الخيانة ، لانها كانت تتمتع مثل
زوجها بالحق فى طلب الطلاق . فقد كان عقد الزواج
عقدا مدنيا محضا وكان الفراعنة أعقل من أن يحاولوا
الزواج الى سجن أبدى ، ولعل أكثر من فرعونية خبيثة
قد استخدمت هذا الحق لى تنقل بين أكثر من
زوج ، محققة فى ذلك نوعا من تعدد الأزواج الزمنى
كما تفعل اليوم بعض الفنانات ! لان تعدد الأزواج الفعلى
نوع من الرفاهية التى لم تنجح المرأة قط فى الحصول
عليه فى المجتمع الفرعونى أو فى أى مجتمع متحضر آخر .
فعلى طالبة التعدد أن تخطف رجلها الى التبت حيث

يمارسون ذلك النظام الغريب ، وما أظن أنها سوف
تكون سعيدة بين أزواجها هناك . فثمة رأى يقول بأن
ذلك النظام لم ينشأ هناك الا بسبب الفقر الشديد
الذى يعجز الرجل عن أن يعول امرأة بمفرده ، فيجمع
عددا من أصدقائه ويتركون فيها . وبالنسبة للمرأة
أعتقد أن زوجها واحدا حسن التغذية أبرك بكثير من
خمسة عندهم أنيميا !

ولكى نكون أكثر دقة في تصويرنا للموقف الفرعونى
يجب أن نترف بأن كل هذا الكلام لا ينطبق الا على
الطبقات الميسورة جدا وحدها ، فتلک الطبقات هى التى
نجحت فى تخليد تاريخها عن طريق المقابر والتمائيل
والنقوش . أما الرجل الفرعونى العادى - زارعا كان أو
صانعا أو موظفا - فما أظن انه قد عاش حياة تختلف
والعياذ بالله عن حياتك وحياتي - اذا كنت تسميها حياة !

وهكذا اخترعت الكتابة

ليس ذنبى اننى أحمل هذا الاسم الغريب « بتاح » فهو الاسم الذى اختاره لى ابنائى المصريون الاعزاء يوم قرروا تنصيبى الها لشئون الفنون والصناعات . وهو منصب لا يمكن لاحد أن ينكر اننى قد ارتفعت على الدوام الى مستوى مسئولياته الجسام ، ساعيا بأبنائى المذكورين فى الدروب الوعرة الملتوية المؤدية الى ما يطلبون الاخذ به من أسباب التمدن والحضارة .

صحيح ان الزميل « اوزيريس » كان قد سبقنى فى هذا المضمار حين علمهم كيف يزرعون الارض وكيف يصنعون الخبز من القمح ، والبيرة من الشعير ، لكننى أعتقد انه ليس بالخبز وحده - ولا البيرة طبعاً - يحيا الانسان .

وما أكثر ما ضحيت فى سبيل أداء رسالتى ، وما أكثر ما تحملت من نزوات أبنائى الاعزاء ، وخذ مثلاً تلك العروس الفريضة التى قرروا أن يزفوها الى . اسمها وحده كان كفيلاً بأن يجعلنى أخاف منها . هل تحب أن تتزوج سيدة اسمها « سخمت » ؟ ووظيفتها ألعن - بالنسبة الى على الاقل - من اسمها ، فما حاجة اله مثلى الى زوجة تشتغل الهة للحرب ؟

والداهية الكبرى فى التكوين الجسمانى لتلك السيدة ،

وما أشك في أنك توافقني على أنه من العسير على أن
أكون مرتاحا كل الراحة حين أقضى السهرة مع أنثى،
لها جسم سيدة ورأس لبؤة .. فلعله كان من حسن
حظي أنها الهة للحرب وبذلك كانت مشغولة عني معظم
الوقت بالحروب التي لا تنقطع بين حكام قبلى وحكام
بحرى .

غير أنها كانت تزورنى بين الحين والآخر ، وخذ مثلا
يوم دخلت على وهى تسحب وراءها تلك الشلة الغريبة
المكونة من رجل مفتول العضلات يلبس فوق رأسه
تاجا طويلا أبيض ، وشاب رقيق الملامح ذكى النظرات
وفتى ضامر الجسم يحمل على رأسه لوحا كبيرا من
الحجر المصقول . ومنها فهمت أن الأول هو ملك الوجه
القبلى الذى انتهى لتوه - بمساعدتها طبعاً - من إيقاع
الهزيمة بأهل الوجه البحرى ، تلك المناسبة التاريخية
التي يرى جلالته وجوب تسجيلها بطريقة تسمح لأهل
الاجيال القادمة أن يطلعوا عليها ويتناقضوها جيلا بعد
جيل .

قالت سخرت لحامل اللوح الحجرى :

— حظ اللوح ياض

فوضعه الواد المذكور عند قدمي ، وعليه رأيت رسما
يشبه الى حد لا بأس به صاحب الجلالة وقد أمسك
بشومة كبيرة ليهوى بها على دماغ رجل راكع يرمز الى
المنهزمين من أهل بحرى .

— أنا اللى واسمها .

هكذا قال الشاب الذكى النظرات وهو ينقر بأصبعه

على صدره في زهو شديد ، والواقع انها كانت صورة
جيدة جدا بالنسبة لهذا الوقت مما قبل عصر الاسرات .
قالت سخمت :

- بس فيه بقى مشكلة عليك انت بحلها .. ازاي
نثبت للأجيال القادمة ان اللى مرسوم في الصورة دي
هو صاحب الجلالة ده موش صاحب جلالة تانى ؟
فتنحج صاحب الجلالة في كبرياء وهو ينتظر ان
يسمع جوابي ، ونظرة من التشويق البالغ لمعت في عين
الولد. ايعنان . فترشت لحظة حتى ازيد من شوقهم ثم
قلت مقترحا :

- ما تكتبوا اسمه على الصورة ؟
فانفجرت أفواههم في بلاهة وهتف الولد الفنان :

- نكتب اسمه؟ .. يعنى ايه نكتب ؟

فابتسمت في رثاء ثم تنهدت في استسلام ، متذكرا
ان الكتابة ليست من الاشياء التي توصل اليها ابنائي
الاعزاء بعد ، وان الوقت قد حان لكي اقدم للبشرية
اول درس في محو الامية

- هو اسم جلالته ايه ؟

هكذا سألت لابس التاج فأجاب في زهو يتناقض

بشدة مع غرابة الاسم :

- نعرمر !

فكتمت ضحكة وقلت له عاشت الاسامي ، ثم التفت

الى الشاب الفنان قائلا :

- ايه اول حرف في اسم جلالته ؟ .. يعنى صوت .

ايه اول صوت في اسم جلالته ؟

ففكر الشاب حيناً وقال :
... نا

— برافو .. وايه تانى صوت ؟
... عا

— تمام .. وايه تالت صوت ؟
— اررر

— وايه رابع صوت ؟
... ما

— وخامس صوت ؟
— اررر

فقلت شارحا :

— الخمس أصوات دول هم الخمس حروف اللام
بيتكون منها اسم جلالته . ودلوقت عايزين بقى نكتبهم
— ازاي ؟

— قلت لى ازاي ..

ومتنحنحنا بالالاطة المناسبة لاله يخترع اللفه المكتوبة
للمرة الاولى قلت له :

— ارسم ياسيدى ... ارسم موجة .
— موجة ؟

— آه ، موجة . عمرك ما مشيت على شط النيل
وشفت موجة ؟

ولكنه ما لبث أن تربع على الارض أمام اللوح الحجرى
وعليه رسم خطا متعرجا لا بأس به كرمز للموجة .

— الموجة دى هى أول حرف من اسم جلالته ...
احنا قلنا أول حرف ايه ؟

— نا ...
— خلاص كل ما تشوفوا الموجة دي تقولوا نا ...
مفهوم ؟

— مفهوم
— تقولوا ايه ؟

— نقول نا .

— كويس . ننتقل بقى للحرف الثانى ... جنب
الموجة دي ارسم لنا ذراع ...

— ذراع ؟

— آه .. ذراع زى ذراعك ...

فرسم الشاب شيئا يشبه الذراع
وقلت شارحا :

— زى ما قلنا على الموجة نا ... نقول على الذراع
ده عا ... مفهوم ؟

— مفهوم
— نقول ايه ؟

— نقول عا ...

— ده جميل ، نبقى خلصنا دلوقتى من حرفين ...
ايه بقى الحرف التالت فى اسم جلالته ؟

— اررر

— تمام ... بعد الموجة والذراع ارسم عندك بق ..

— بق ؟

— آه .. بق ما تعرفش بقك ؟

فرسم الشباب ما يشبه الفم البشرى ثم قال من تلقاء
نفسه :

— وكل ما نشوف البق ده أقول أررر
— عفارم عليك ..

فتفرز الشاب حيث جلس على الأرض وهو يصفق
في فرح صبياني

— ايه بقى الحرف الرابع فى اسم جلالته ؟
هكذا سألتهم .. فقالوا : « ما » .

— ارسم بومة ..

فرسم الشاب بومة وقال :

— وكل ما نشوف البومة دى نقول ما ...

— تمام ، والحرف الاخير بقى موش حقول لك عليه

فهرش الشاب رأسه مفكرا ، وعكف على الصـور
يراجعها ثم ابتسم فى انتصار ورسم مكان الرء فما
جديدا وقلت أنا :

— قولوا ورايا بقى ... موجة يعنى نا ...

— موجة يعنى نا ...

— ذراع يعنى عا ...

— ذراع يعنى عا ...

وهكذا حتى انتهينا من مراجعة كل الحروف المكورة
لاسم صاحب الجلالة ، مسجلين بذلك أول كلمة فى
اللغة الهيروغليفية ، وربما أول كلمة مكتوبة فى التاريخ
البشرى كله . ومتنهدا فى ارتياح وقد أدت واجبي
استدرت لانصرف فجذبتنى سخمت .

— على فين احنا لسه خلصنا ؟

وفهمت منهم انهم يتوقعون أن أرشدهم الى كافة
الكلمات التى تسجل القصة الكاملة لانتصار صاحب

الجلالة ولكننى قلت لهما شارحا :

— شوفوا يا اولاد ... بقى احنا يا آلهة علينا نرسم
الخطوط الرئيسية ، أما التفصيلات فدى حاجه عليكم
انتم ، هه ؟

وازاء ما رايت من ارتباك الفتى الفنان قلت له :

— راقب نفسك وانت بتتكلم ... وكل حرف تنطقه
ارسم قصاده صورة ... ايشى تعبان ... ايشى ديل
بفرة ... ايشى ضلع غزال ... ايشى حية بقرنين ...
شوية شوية تلاقى قدامك أبجدية كاملة .. مفهوم ؟
فهز الفتى رأسه عدة مرات فى حماسة شديدة ،
وتنحنحت أنا لانبهم الى انتهاء المقابلة .

— شيل اللوح يا ض

هكذا قالت سخمت للواد فشال اللوح وأنا أطبطب
على ظهر الفتى الفنان فى تشجيع وأصلح من وضع
التاج الابيض على رأس صاحب الجلالة . وعند الباب
توقفت سخمت وقالت لى باسمه عن انيابها الحادة :

— اخلينى شوية ؟
فقلت بسرعة :

— لا مافيش لزوم .. روحى شوفى لك عركة هنا
والا هنا ..

وأشحت بوجهى قائلا بالروحانية المناسبة :

— سيبونى اتفرغ لتأملاتى ...

فخرجوا وتركونى ، ويوما بعد يوم سمعت كيف عكفوا
على اختراع الرسوم المختلفة لتعبر عن الاصوات المختلفة
حتى اكتمل لهم ما سوف يعرفه التاريخ باسم اللفة

الهيروغليفية . والى تلك الرسوم أضافوا بعض العلامات
الهجائية حتى صار عندهم أبجدية كاملة مكونة من أربعة
وعشرين حرفا . صحيح أن حروفهم كلها ساكنة ،
ولكنك تعرف أن الاختراعات العظيمة لا يمكن أن
تستكمل إلا عبر قرون وقرون . ولقد خطر لى مرة أن
أرشدتهم الى الحروف المتحركة ولكننى عدلت عن
ذلك . . فليس من العدل أن أتولى أنا كل العمل ولا
أترك شيئا للأخ جوبيتر وغيره من الزملاء الاغريق شيء .

وذات يوم دخلت على سخمت وهى تسحب وراءها
شلة مماثلة للشلة السابقة ، وعلى رأسها رجل مفتول
العضل يحمل فوق رأسه تاجا نصفه أبيض ونصفه
أحمر ، وشاب دقيق الملامح ذكى النظرات مثل الشاب
السابق ذكره ، ونفس الفتى الضامر الذى يحمل فوق
رأسه لوحا من الحجر .

— بالك ايه « هكذا قالت سخمت فى فرح شديد »
موش خلاص وحدنا القطرين ؟

— فقلت متظاهرا بالدهشة بتكلمى جد ؟

— آمال ايه . . احنا بنلعب ؟ والبركة فى صاحب
الجلالة مينا .

ولسبب ما أحسست أن مينا هذا نعرمر متكرر
متنكر ، ولكنى لم أقل شيئا . واستطردت سخمت
تشرح لى كيف أن توحيد البلاد يحتاج لاجراء تغييرات
شاملة فى الاوضاع الثقافية ، وعلى رأسى هذه الاوضاع
مسألة الكتابة على الحجر . فاذا أراد صاحب الجلالة
أن يرسل منشورا من العاصمة الى حاكم الاقليم الجنوبى .

أليس من المضحك أن يرسلوا عشرين لوحا من الحجر
على ظهر عشرين حمارا لكي يصل المنشور الى وجهته
في شهر أو شهرين ؟

— لازم تشوف لنا حاجة خفيفة نكتب عليها .
ففكرت في الامر لحظة ثم قلت :

— ما تكتبوا على جلود الحيوانات وعظامها ؟
فانبرى الشاب قائلا :

— جربناها لقيناها موش اد كده

— اكتبوا على الكتان ...

— غالى ...

— اكتبوا على الفخار ...

— بينكسر ...

— اكتبوا على العاج ...

— ح نلاقى كل يوم فيل ؟

فأسقط في يدي وكدت أتهرب منهم لولا أن سرحت
ببصرى الى البحيرة الصغيرة بالقرب من المعبد ...

— بصوا وراكم ...

فبصوا ...

— شايفين ايه ؟

— شايفين بحيرة ...

— والبحيرة فيها ايه ؟

— فيها ميه ...

— والميه فيها ايه ؟

— لازم فيها سمك ...

— انتو شايفين السمك ؟

— لا ...

— أنا بأسألكم شايفين ايه ؟ .. موش شايفين حاجه طالعة من الميه ؟

— شايفين ...

— ايه ؟ ..

— أعواد بردى ...

— هو ده

فتنهدت في ارتياح وقلت :

فنظروا الى في بلاهة ...

— هو ايه ده ؟

— هو ده اللي تعملوا منه الورق ...

— ورق يعنى ايه ؟

وهذا عيب الابناء الاعزاء ، انهم يريدون ان تقل اليهم كافة المعلومات وفورا . ومن ثم وضعت كفا على كتف صاحب الجلالة وكفا على كتف الشاب الفنان وقلت :

— شوفوا يا اولاد ... بقى احنا يا آلهة علينا ... غير ان الشاب قاطعنى باسم :

— علينا نرسم الخطوط الاساسية وانتو عليكم الباقي ...

فنظرت اليه بريية ...

— هو انت اللي جيت مع نعرمر ؟

— لا يا افندم ، أنا واحد من أحفاده ...

فسرني ان أخبار تقاليدى تنتقل بهذه الصورة عبر الاجيال ، كما سوف تنتقل تعاليمى عبر الاجيال

بوساطة هذا الاختراع السحري الذى هو ورق البردى؛
الذى لولاه لما أمكن تسجيل تاريخنا المصرى المجيد ولاتاريخ
من سوف يأتون بعدنا من يونان ورومان ، ولضاعت
معظم الوثائق الحافظة للتراث وتغير تاريخ الثقافة
تغيرا شاملا .

وفى اعجاب شديد نظرت الى سخمت وقالت :
- موش عارفه من غيرك كنا عملنا ايه ...

واقبلت على متأودة بجسم الانثى ورأس اللبوة :
أدنت وجهها من وجهى لتقبلنى فيما يبدو ، أنفاسها
الساخنة لسعتنى وشواربها الطويلة شوكتنى .

قلت مناشدا :

- سخمت ...

فقلت مداعبة :

- ايه يا بتوحة ؟

فقلت محذرا :

- ما فيناش م العض ، هه ؟

فتناولت بأنيابها حلمة أذنى وعضتها مداعبة ، ومن
حقها على أن أعترف بما أثنته لى بعد ذلك من أن
الانثى ليست على الدوام برأسها ، بل انها بالنسبة
لبعض الاناث قد لاتزيد - الرأس - عن كونها عضوا ثانويا
مكملا ، أو نوعا من الاسراف الفسيولوجى غير المتوقع
من الطبيعة المقتصدة دائما .

ملحوظة : علماء المصريات يعرفون ان الفراعنة ينسبون
اختراع الكتابة الى الاله توت لا الى الاله بتاح ، وحيث
ان كلا الالهين لم يكن موجودا فقد اخترت أخفهما دما
على قلبى !

مقاولة الهرم الأكبر

لاشك ان الملك خوفو قد انشكع بشدة عندما فرشوا أمامه ورقة البردى الهائلة التى تتضمن رسما هندسيا للهرم المزمع بناؤه ، ذلك الرسم الذى تفتقت عنه عبقرية مهندس ناشئ نفترض ان اسمه حور .

حور : المساحة يامولاى ثلاثة عشر فدانا بالضبط ، وطول كل ضلع من الأضلاع الأربعة ٢٣٣ مترا ، والارتفاع ١٤٥ مترا ، وعدد الأحجار مليونان وثلاثمائة ألف حجر تقريبا ، متوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف طن ، وكل واجهة من الوجهات الأربع ستكون مقابلة تماما لأحدى الجهات الأصلية . وحجرة الدفن بالذات سوف تكون فى الجهة البحرية لا لكى ترطب المثوى الملكى فحسب ، وانما .. وانما .. وانما ..

وهنا تدخل لاتمام الجملة كبير كهنة عين شمس الذى اعتقد ان اسمه يجب ان يكون سمنخرع .

- وانما لكى تكون فى مواجهة النجم القطبى الذى لايفيب أبدا ، رمزا للخلود الذى ينتظر مولانا فى جنات أوزيريس ذات الربيع الدائم .

وهنا جاء الدور فى الكلام على المقاول الذى استحضره سمنخرع ليتولى العملية واسمه فى أغلب الظن توت .

توت : والميزانية يا مولانا ملمومة وحاجة ع الإد

خالص .. ومولانا طبعاً يعرف وهو سيد العارفين ان
هرم زى ده لا ممكن يتكلف أقل من عشرة مليون جنيه .
وبينما نظر خوفو الى الخريطة رفع يده الى رأسه
ليهرشها بطريقة فرعونية لا تخلو من رعدة تأثر .

— لكن ده يخلص على امتى ده ؟
هكذا تساءل الملك الاله .. فقال المهندس حور في
استخفاف :

— سنتين .. تلاته .. بالكثير ...
فلكزه توت بكوعه وقال :

— لا سنتين ولا تلاته ... على النعمة لاشطبه في
سنة واحدة !

ورفع سمنخرع أصبعه شيرا الى قرص الشمس :
— وببركة رع قبل كده كمان .

فعاود خوفو هرش رأسه الملكية ثم قال :

— لكن عشرة مليون موش كثير ؟

فأخرج كل من حور وتوت ورقة بردى من جيبه
تتضمن الحسابات المبدئية الخاصة بتكاليف العملية ،
وشرعا يشرحان الحكاية لصاحب الجلالة . والحكاية
تحتاج — ومولانا سيد العارفين — الى ما لا يقل عن خمسين
الف عامل لاقتطاع الصخور من محاجر طرة ، وتسويتها
وتحويلها الى مكعبات مصقولة فاخرة .

— وعلى فكرة « قال توت مستدركا » أنا عندي
متعهد أنقار يعجب مولانا قوى !

وحيث ان الهرم سوف يقام — كما يرى السيد
المهندس ولاعتبارات معمارية — في الجيزة لا في طره ..

فلا مناص من نقل تلك الملايين من الاحجار عبر النيل
من الشاطئ الشرقى الى الآخر الغربى ، والامر يحتاج
الى اسطول من الزوارق يستطيع مولانا أن يتخيل مدى
ضخامته .

— وبرضه عندي متعهد مراكب مافيش زيه فى منه ،
كلها !

وهؤلاء العمال يجب أن يأكلوا بالطبع ، ومهما قترنا
عليهم فى الاكل فهل ممكن أن نقيم أود الواحد منهم —
لكى يعطينا جهدا كافيا — بأقل من رغيف فى الطقه
مع خصاية وشرش بصل ؟

— وبرضه عندي واحد متعهد أغذية انما ...
وهنا قاطعه سمنخرع قائلا :

— لا ياسى توت ، ده على أنا !

وهناك آلاف الفئوس والمعاول اللازمة لقطع الاحجار
من الجبل ولرفعها ، وآلاف أمتار الحبال المتينة اللازمة
لجرها ، وكل هذا أيضا بفلوس .

— وبرضه أنا عارف لمولانا ...

وكان حور هو الذى قاطعه هذه المرة :

— من فضلك دى حاجات من اختصاصى أنا !

وبينما وأصلوا شرح متطلبات العملية وأصل خوفو
هرش رأسه وقد بدأ يشعر بما يشبه الدوار ، ثم قال
بالإلاطة المناسبة لملك من الاسرة الرابعة :

— أمرنا بعشره مليون ..

فامتلات الحجرة بالرياح نتيجة لتنهيدات الارتياح ،
ورفع سمنخرع أصبعه الى السماء قائلا :

— على بركة رع !

وفي الحقول والقرى نودى على الفلاحين أن واحدا منهم لن يتعطل بعد اليوم حين تمتنع الزراعة في موسم الفيضان ، لأن آلاف الأيدي العاملة مطلوبة للعمل طوال موسم الفيضان وكل المواسم مساهمة شريفة منها في تشييد أعظم بناء عرفه التاريخ ، الهرم الخالد الذي سوف يضم الجثمان المقدس للملك الإله .

وفي ذات فجر صيفى رطيب لمعت عند الأفق نجمة ايزيس « الشعري اليمانية » مبشرة باقتراب الفيضان فتدافع في الطرقات وعلى حافة النهر آلاف من الفلاحين والعمال يقصدون طرة ، وعلى جسم الجبل تهاوت آلاف الفتوس والمعاول محدثة ضجة لا أشك في أنها قد وصلت من طرة إلى أبى زعبل .

ومرت السنوات الثلاث وذهب خوفو ليرى نتيجة العمل ، ومن المستبعد جدا في هذه المرة أن يكون قد انشكع . فلا يمكن أن يكون قد رأى سوى أربع أو خمس طبقات من الصخور وليس ثمة هرم . ولا بد أن يكون قد استشاط غضبا ، ولا بد أنه شخط ونظر وسب ولعن ، فصبروا عليه حتى فش غله ثم تنحج سمنخرع وقال بصوت وقور يهدىء به من ثورة الملك :

— المسألة موش سهلة يا مولاي ، دول اتنين مليون حجر ونص ...

وتدخل حور قائلا :

— ده ظبط حجرة الدفن ع البحرى خد لوحده ست أشهر !

وخيمت لحظة صمت قبل أن يتنحنح حور قائلا :
— والميزانية ولا مؤاخذه خربت شوية ، يلزمنا
عشره مليون تانيين ...

فصرب خوفو بيده على جبينه الملكى ضربة كادت
تسقط التاج عن رأسه لولا أن لحقه سمنخرع . وازاء
ما عرى وجهه من شحوب فرعوني بالغ لابد انهم احضروا
له خادما ليهوى على وجهه وكأس نبيذ ليهديء من
روعه . ولكى يعرف الملك أين ذهبت الفلوس شرعوا
يشرحون له الميزانية بندا بندا ، وخذ مثلا يامولانا هذا
البند البسيط وهو بند الخص . كانوا يظنون ان العامل
من دول سوف يشبع من خصاية واحدة فاذا بالوغد
يحش خمس خصايات ويظل جائعا .

— ويظهر ان الاله « مين » موش راضى علينا ...
الدودة نزلت هرى فى المحصول والخصاية بقت بالسئء
الفلانى !

— والراجل منهم يامولانا ياكل شرش البصل على بق !

— والعيش ما تعدش يامولانا ... الرغيف ده يعتبر
حاجه كده مسح زور !

وفى ذات يوم هددوا بالاضراب ان لم يبلوا ريقهم خلال
العمل بشئء من البيرة ، والبيرة فتحت نفسها فصاروا
أشره من قبل . وهذا البند يهون جنب بند الاسكان ،
ونص الميزانية قد ضاع فى بناء العنابر التى تلم كل هذا
الحشد من العمال .

— ولا المصاريف الادارية ...

اذ استدعى الامر انشاء ادارة الاحصاء التى تتولى

عد الاحجار وحصرها وضمان سلامتها . ثم ادارة الحسابات اللازمة لمراقبة الانفاق وموازنة الدخل بالمنصرف . وادارة شئون العاملين التى تقوم بصرف الاجور والمرتبات . وادارة الشرطة التى تفض ما لامفر منه من المشاحنات التى تشتد حين ترتفع الحرارة وتفشل البيرة فى ترطيب النفوس . وفوق كل ذلك ادارة خاصة لتنسيق العمل بين كل هذه الادارات .

— ولا بند الطوارئ ...

الذى اضطروا الى اضافته فى ذلك اليوم المشؤم يوم أرسل رع فى لحظة غضب تلك الريح الصرصر التى أغرقت فى النيل أكثر من نصف الاسطول فأعادوا بناءه من جديد .

— ولا بند الحوادث ...

اذ ندر أن مر يوم دون أن ينفعص تحت الاحجار خمسون أو ستون عاملا ، وهو ما يفسر لمولانا هذا البند الآخر — بند الندابات الاجيرات ...

— ولا بند الكرايج ...

وذلك حين لاحظوا موجة الالحاد التى بدأت تتفشى بين العمال ، حتى وجد منهم من يتشكك فى القيمة الدينية لهذا كله ، دعك يامولاي من أولئك الهدامين الذين يتساءلون لماذا لا يدفن مولانا فى قبر مثل كل القبور؟

— ولا بند

غير ان خوفو رفع يدا ملكية تأمرهم بالسكوت ، وبعد شئ من النفخ المبرر فى تلك الظروف قال :

— امرنا بعشرة مليون ودى آخر مرة ...

ثم أضاف منذرا :

— على شرط أن يخلص في سنتين !

— خليهم خمسة يامولاي ...

— خليهم خمسة ...

وحيث أننا نعلم أن بناء الهرم استغرق عشرين عاما
فيمكنك أن تعرف مدى ما اعتري خوفو من غضب
ومرارة ويأس عندما ذهب بعد تلك السنوات الخمس
 فلم يجد أمامه أكثر من ثلث هرم . فلا بد أنه هاج
وماج من جديد ، وخاصة عندما تنحج توت وقال :

— وبرضه لا مؤاخذه يامولاي الميزانية خرمت شوية.
وأسرع سمنخرع بوضع كومة من الاوراق أمامه
وقال :

— وكل شيء يامولانا مسجل في الدفاتر !

فلا بد أن خوفو رفض هذه الاوراق بقدمه وبعثرها
حتى تطاير بعضها بالقرب من مينا هاوس . وما أشك
في أنه « لو أنا مكانه لعملتها » صاح في توت بصوت
يهز الهرم :

— أنت حرامى ! أنت لص ! أنت مجرم !

ولا بد أن الصيحة ألجمت توت بعض الوقت ، ولكن
المقاول المحنك ما برح بالطبع أن أطل برأسه وقال
معاتبا :

— أنا حرامى يامولانا ؟ .. أنا لص يامولانا ؟ ..

وألقى ما بيده على الارض لكى يتاح له أن يعد
على أصابعه وشرع يقسم :

— طب ورع العالى أبو صقر .. وآمون الخفى ..

وأوزيريس الحى .. وأيزيس الطاهرة .. وحوريس اللى
خد بتار أبوه .. وخنوم اللى خلقنا من طين ..
وجحوتى اللى خلقنا بكلمة .. ومسخت حبيبة الحبالى
وتوت وتفنوت .. وجب وشـ .. ومين ويس ..
ونفتيس وسخت .. وأبيس وأنوبيس .. والثالوث
والتاسوع والثامون .. ومولانا اللى ما احلفش بيه باطل
أبدا .. « لحظة لسكى يسترد أنفاسه » ان الشفلانة
دى ما هى جايبة تمنها !

ولا بد انه استدار لينصرف فشده سمنخرع من جونلته
وطبطب على ظهره مهدئا .

— وما تنساش كمان يا مولانا « هكذا قال حور »
ان حجرة الدفن ع البحرى !

فراح خوفو ينفخ نحوا من خمس دقائق ، وناظرا
الى آلاف العمال الذين يشتعلون كالنمل فى قبره ما برح
ان هدأت نفسه أمام الامر الواقع ..

— عاوزين كام ؟

— اللى يطلع من ذمة مولانا ... عشرة مليون كفاية .

ففكر خوفو لحظة ثم تنهد قائلا فى استسلام :

— اللى وقع يسد ... اندهوا لى مدير الضرائب !

ولم ينس قبل ان ينصرف ان يقول منذرا :

— ويخلص فى سنة واحده !

فرفع سمنخرع اصبعه نحو السماء وقال :

— على بركة رع مولاي .

ولا بد ان خوفو بدا يتشكك بشدة فى بركة المذكور

عندما دار العام وما برح الهرم ثلثى هرم .

وربما كان هذا هو السبب فيما ذكره التاريخ من أنه
خطف رجله فيما بعد الى بوباسطى « الزفازيق حاليا »
لكى يبنى معبدا لحساب الالهة القطه بسبس « باستت
سابقا » .

عشرون عاما قضاهما الفرعون التعس فى هذه المعاناة
المتواصلة ، وسقط آلاف المخاوف والشكوك
والصدمات ، لكنه كوفىء على صبره فى النهاية مكافأة
طيبة . فعندما انتهى بناء الهرم لا بد أن يكون قد انشكع
حقا ، ومن ذا الذى لا ينشكع ازاء هذا الجبل الخرايى
المائل أمامه ، اللامع فى ضوء الشمس كأنما قد صنع من
ذهب خالص ؟

— وما تنساش يا مولانا « قال حور » ان حجرة الدفن
ع البحرى .

ولا بد ان فرحته بالقبر الفذ قد هونت عليه أمر
خزينته التى فتحها بالأمس فوجدها شبه خاوية .
وذلك طبعا بعكس خزانة معبد عين شمس التى طفحت
بما فيها من ذهب وفضة .

وقال له سمنخرع عندما سمع أنه قد أنجب بالأمس
ولدا :

— ح نسميه ايه يا مولانا ؟

— حاسميه على اسمى .. أنا خوفو وهو « خف »
— خف ؟

— ایوہ ...

فرمقہ سمنخرع بخت و قال :

— حاف کده ؟

فتفکر خوفو حینا ثم تنهد و قال :

— خف ... رع !

من يوميات أمون

١٥ طوبة سنة ٢١٤٠ ق.م.

بدأت بصراحة أزهد من هذه الوظيفة المحدوفة في أقاصي الصعيد . . وظيفة الهاء بمدينة طيبة. نعم اننى أتنفس فأزود الاهالى بحاجتهم من الاوكسجين وهذا شيء هام ، ولكن لماذا لا تكون أنفاسى على مستوى المملكة كلها مثل رع وأوزيريس وبتاح وغيرهم من الآلهة العظام ؟ فإذا أنت نظرت الى القرابين التى يقدمونها لى فهى بالاختصار زفت . وأى قرابين تلك التى تقوم معظم الوقت على الخص والفجل والجرجير والبصل الأخضر وجميزة أو اثنتين ؟ صحيح ان الموقف يتحسن بعض الشيء فى الاعياد والمواسم حين يقدمون الى شيئاً من اللحم ولكننى أعتقد ان البروتين الحيوانى ليس من العناصر التى يجوز أن نغيب عن مائدة الاله المحترم فى أى يوم . والخدمة هى الاخرى زفت ، ونظرة الى الكاهن الذى يقدم لى تلك القرابين كقيلة بأن تسد نفسك أسبوعاً . فهو ليس هزلاً ضعيفاً ضامراً مهلهل الثياب فحسب ، وانما أقرع أيضاً . وما يكاد يضع الطعام أمامى ويهمهم بترنيمة أو اثنتين حتى يسارع بسحبه قبل أن أصيب منه شيئاً . وبالرغم من

ذلك لا يبرح هزيعا ضعيفا ضامرا ، مما يدل على انه
اشددة أفلاسه لا يأكل منه الا بصلة أو فجة ويبيع
الباقي . فهي كما ترى حياة لا نسر عدوا ولا حسبا .
وليس يعزيني سوى ما أمني به نفسي من أن يأنى اليوم
الذي تزول فيه الفشاوة عن أبصار الناس فيكتشفون
مواهبى ويعرفون أى اله أنا .

١٠ هاتور سنة ١٩٩١ ق.م.

يبدو ان حدسى الالهى لم يخطيء . وان تلك الفشاوة
قد بدأت تزول فعلا . فلماذا فوجئت هذا الصباح بذلك
الثور العظيم الذى ذبحوه عند قدمي ؟ وشيء من دماؤه
طرش ساقى فأسرع كبير الكهنة بمسحه عنى بذيل
مئزره الذى لاحظت انه مئزر جديد .

وكاهن آخر همس لزمسله وهو برمقنى فى رهبة
شديدة :

— تصور أن مولانا سمي نفسه على اسمه ؟

— مش معقول ؟

— وحياة رع كده .. سمي نفسه آمن محات .

وتوقف لحظة لبلع ريقه ، ثم أضاف وهو يشير الى :

— وعارف هو بقى ح يسموه ايه ؟

— ايه ؟

— آمون رع !

— يانهار زى بعضه !

هأقبل الجميع فركعوا أمامى وهات يا ترتيل . وبخور
كثيف أطلقوه حولى وهم ينشدون ، ثم كنسوا الحجرة

ورشوها بالماء المقدس؛ ثم أقفلوها على وختموها وصارت
من ساعها قدس الاقداس الذى لا يجوز دخوله لغير
الصفوة من الناس .

٢٠ مسرى سنة ١٩٩٠ ق.م.

فى صبر جميل رحت استمع الى المناقشات اللاهوتية
التى تدور بين الكهنة حولى ، باسمنا وأنا أرى لخماتهم
المتافيزيقية بشأن اختيار الاخانة التى يدرجوننى فيها
من ثامون عين شمس أو تاسوع منف . وخلاف شديد
بينهم حول ذلك السؤال العسير : هل تولى ثامون الالهة
عملية خلقى أو اننى أنا الذى نولست خلق ذلك الثامون؟

غير اننى لن اتعبك بالتفصيلات وحسبك ان تعرف
خلاصة ماوصلوا اليه من صفاتى وكيف اننى ملك الالهة
وسيد الملوك ، صانع الرجال وخالق الحيوانات وبدابة
كل ما هو موجود ؟ ليس لى أب ولا أم بل شكلت
بيضتى بنفسى ومزجت نطفتى بجسدى ، ومثل آتوم
رفعت نفسى من هاوية الحياة الازلية . الرياح أنفاسى
والرعد صوتى ، وعينى اليمنى هى النهار والليل عبنى
اليسرى . سيد الحق وسيد الزمن ، مبطل الرقى
وشافى المريض . مطيل الاعمار مجيب الدعاء .

وشىء آخر لاحظوا انه بدونه لايمكن أن يتم كمالى ،
وهو ذلك الشبه الشديد الفائم — أو الذى يجب أن
يقوم — بينى وبين اله التناسل «مين» . ومن ثم نادوا
من النحاتين من أدخل على تمثالى من التعميدات
التشريحية ما يقوم دليلا قاطعا على فحولتى الفذة

واستعدادى الدائم للاخصاب عند الطلب . وأصارحك
القول بأن هذا سبب لى فى بدابة الامر بعض الارتباك
وخاصة حين تتواجد فى قدس الاقداس بعض المتعبدات .

وفوجئت بهم بعد حين بسوقون الى المعبد سربا من
الحسان الناضرات الضاحكات وقد سموهن محظيات
الاله . فمعدرة اذا أجلت اكمال هذه اليومية الى وقت
آخر .

٢٠ بابة سنة ١٧٩٠ ق ٢٠ م .

للأسف الشديد لم تدم سعادتى غير قرنين من الزمان
لا غير ، وما قيمة قرنين فى حياتنا نحن الالهة ؟ اذ
اشعر اليوم بأن شيئا خطيرا بجرى فى البلاد ، ورياح
الشمال تهز قدس الاقداس بأصوات بعيدة لصليل
وصهيل وهرج ومرج وهبذ ورزع . مع هتاف وصياح
وصراخ وحشى . وعويل وأنين وعواء حزين ، ثم صمت
رهيب مثل صمت القبور . باب قدس الاقداس فتح
عن عدد من الكهنة قد كسا الحزن وجوههم ، برءوس
مطرقة أتوا فركعوا أمامى . شىء من الهمهمة الفامضة
ثم رفعوا الى عيوننا غمرتها الدموع . ووراء الدموع مزيج
عجيب من الشك والخوف والعتاب .

لان قوما من آسيا بدعون بالهكسوس هجموا كما
فهمت على البلاد واحتلوا الدلتا ، وبيوت كثيرة نهبت ،
ومعابد هدمت ، وحرائق رهيبة حولت الليل الى
نهار . فهذا ما يفسر معنى العتاب فى نظرات الكهنة ،
فكيف سمحت — أنا آمون العظيم — بأن تحقيق بالبلاد

مثل هذه الكارثة ؟ ومن ثم كان معنى الشك والخوف ، الشك في قيمتي كاله يقدر على كل شيء ، والخوف من أن أكون قد غضبت عليهم لسبب أو آخر فرأيت أن أحل عليهم نقمتي .

ولكنني بالرغم من حزني الشديد وخجلي أرى أن الذنب ليس ذنبي ولا ذنب أي إنسان فماذا كان في استطاعة الناس أن يفعلوا وقد فوجئوا بعدو يهاجم من فوق عربات تجرى على عجل ويجرها ذلك الوحش الخرافي الذي خلقه الهة آسيا وأسمته بالحصان ؟

١٢ كيهك ١٥٩٠ ق م.

قرنان آخران كما تلاحظ قد اضيفا الى عمري ، وشلة من الكهنة والنبلاء دخلت قدس الاقداس وعلى رأسها حاكم طيبة « سقنرع » . كان عنده كما فهمت مشكلة يريد أن يأخذ فيها رأبي . وما أغربها من مشكلة . ملك الهكسوس أبو فيس المقيم بمدينة هواره من أعمال الدلتا ، بعث اليه برسول يطالبه باعدام كافة أفراس النهر المقيمة في بحيرات طيبة . مستندا الى ذلك السبب المضحك وهو أن خوارها يقطع كل المسافة من طيبة « الاقصر حاليا » الى الدلتا فيزعجه ويطير النوم من عيون جلالته ! فهي كما ترى تمحيكة وضيفة وجر شكل . اذ أراد الوغد أن يخرج سقنرع ويزنقه بين أمرين : اما أن ينصاع للأمر السخيف ويصبح بذلك اضحوكة طيبة ، واما أن يعصاه ويكون بذلك مستحقا للعذاب . ومن ثم وجه سقنرع الى سؤاله الاول الذي

يقول : هل أذبح سيد قشطة ؟ وعلى قدس الاقداس
حيم صمت عميق وقد نعلقت بى العيون فى انتظار
اجابتي . غير ان صمتى طال بالطبع دون أن أقول
شيئا . وهكذا طرح سقنرع سؤاله الثانى :

— هل اهاجم ابوفيس ؟

ولم يطل سمنى هذه المرة . اذ لمح رئيس الكهنة
يتسلل فى الظلام الى ما ورانى . وعلى قفاى احسب
بيده نوضع — وكانت ساقعة جدا — لكى تدفع رأسى
الى الامام . وللفور امتلأت الحجرة بالهمهمة وصاح
كبير الكهنة يقول : « الاله يقول نعم ! »

فتحولت الهمهمة الى تهليل وهتاف ، وركع سقنرع
امامى ليفترف من بركتى قبل أن يخوض المعركة .

٢٠ مسرى سنة ١٥٩٠ ق.م.

بدأت أكره سيد قشطة وبدأ خواره يؤرقنى أنا لا
ابوفيس . فكلما سمعت ذاك الصوت البفيض حزنت
جدا على سقنرع الذى سقط فى المعركة صريعا .

٥ برمودة سنة ١٥٨٠ ق.م.

بالامس سمعت رئيس الكهنة يقول لاحد أعوانه
وهو يشير الى :

— ملكنا كاموس سيأتى اليوم ليستطلع رأى الاله .

— وهل سيوافق ياترى ؟

وانتظرت أن أسمع الاجابة ولكنهما ابتعدا والكاهن
يشوح بذراعيه فى عصبية . واليوم أبى كاموس مثلما

أتى من قبل أبوه سقننرع ، ومن جديد وجه الى نفس السؤال : « هل أهاجم الهكسوس ؟ »

وانتظرت أن أشعر بيد الكاهن الساقعة على قفدي ولكن شيئاً من ذلك لم يقع . وطال الصمت وقد تعلقت بى الابصار . وأخيراً نطق رئيس الكهنة فقال :
— الاله يقول : لا !

فسرت هنا همهمات ارتياح . واستدار كاموس فخرج وعلى وجهه علامات الغضب . ونسبت أن أقول لك ان الكاهن الضامر الهزيل ناع زمان قد سمن وترهل وأصبح وزنه مائة كيلو على الأقل .

٦ برموده سنة ١٥٨٠ ق.م.

علمت ان الملك كاموس وقد خرج من عندى جمع مجلسا من رجاله وقال لهم فى غضب :

— أريد أن أعرف ما مدى سلطتى . . وأريد أن أعرف كيف يكون للبلد ملكان . . وكيف أسمح لأجنبى بأن يحكم نصف بلادى ؟ سأحارب ملك الهكسوس وبقر بطنه وأخلص مصر من الاسبويين !

فقال له بعض الرجال ما معناه :

— بامولانا خلىنا فى حالنا . . ما احنا كويسين كده . . آدى احنا عايشين نسترزق !

ولكن كاموس صاح فيهم قائلا :

— ان جميع البلاد فى حزن وأسى ولسوف أحارب الهكسوس ! وسوف يهتف الناس باسمى كحاكم طيبة وحامى مصر العظيم .

١٠ هاتور سنة ١٥٧٩ ق.م.

أنباء مفرحة من الشمال ، عن أمير الهكسوس الذى فوجئ ساعة الافطار بهجوم المصريين ، وكيف ذبحوه وخربوا مدينته وأخذوا زوجته بين الاسرى . ومدن أخرى تتساقط فى يد كاموس واحدة تلو أخرى . نعم هى أنباء مفرحة ولكننى مع ذلك حزين . لم أكن أحب أن يلقى كاموس نفس المصير الذى لقيه أبوه .

٥ بؤونه سنة ١٥٧٥ ق.م.

أحمس وقف أمامى كما فعل كاموس من قبل ، ومن جديد سمعت نفس السؤال : هل أواصل المعركة ؟ وطال انتظارى لنيد الساقعة ، وأخيرا نطق رئيس الكهنة فقال : « الاله يقول : لا ! »

فادركت اننى يجب ان اعتمد على نفسى ، والى هذه اللحظة لا أعرف كيف نجحت فى أن أومئ برأسى ، فلا بد ان الشامون أو التاسوع تدخل فى الامر . وما كادوا يرون ابمائتى حتى صاحوا جميعا : الاله قال : نعم !

١٠ توت سنة ١٥٧٠ ق.م.

أمون هو أمون وان طال الزمن ! أخيرا عاودتنى قوتى وحلت على الناس بركتى ، وبأنفاسى نجح أحمس البطل فى تطهير البلاد من الهكسوس . ألا ما أجمل منظر أولئك الناس الفرحين ، والفناء والرقص الذى يهز طبيعة هذا . وبخور ذكى يملأ الدنيا ، وأكداس من القرايين حولى . والليله أستطيع أن أعود الى سعادتى مرة أخرى ، بين محظيات الاله على صوت ذلك الخوار المطرب لسيد قشطة !

سپۆڤو

الذى عاش فى الحقيقة

لن تجد غرابة كبيرة فى وجود كل ذلك الحزن على وجه نفرتيتى « ومعناها الحلوة نيتى » اذا أنت القيت نظرة على منظر السيد زوجها اخناتون • برأسه المستطيل وفكه المتدلى وشففيه الممطوطتين • وكتفيه المنحدرتين حول صدر هزيل يزينه ثديان متورمان يتناغمان مع ذلك الانتفاخ الشديد فى بطنه وكنه حامل فى شهره الاخير • فلو اقتصر الامر على ذلك لكان هينا ، ولكن اخناتون كان عبقرى ايضا • والعباقرة كما تعلم ارداء نوع من الازواج « ولن أقول لك واسأل مرأتى أحسن تفكر انى مفرور والا حاجة ! » . صحيح ان السيد اخناتون قد أنجب منها ست بنات ولكن يجب ان تذكر ان ذلك كان فى سنوات العسل الاولى ، قبل أن يغرق بروحه وكيانه فى نشوة الفكر الدينى ، وقبل أن يتفرع لتأليف أناشيد الغزل فى معبوده الجديد آتون .

كان اخناتون وريثا لأكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى ذلك الوقت ، ومن ثم كان عنده كل ما يلزمه من الوقت لى يجلس مسترخيا ويتفلسف . وأدت به فلسفته الى استهجان عام لتلك المهزلة الالهية التى يعيشها شعب مصر ، بين آلهة تحمل رعوس الصفور ، وأخرى تحمل رعوس البقر والكباش والشعابين ، دعك

من السيدة سخمت التى تحمل رأس لبؤة . وأوزيريس نفسه لم يعجب اخناتون ، بعالمه السفلى الملىء بالارواح الشريرة والمحاكمات الهزلية . واما آمون اله الدولة الرسمى فقد اختصه بكرامية لا مثل لها وقرر أن يمحوه من الوجود محوا .

وما كان لهذه الافكار أن تمر بالطبع دون أن تثير غضب الكهنة . سواء كهنة آمون أو كهنة سائر الآلهة الذين كانوا يتمرغون فى الذهب والفضة من وراء الاتجار بتلك الاسماء المقدسة .

فبدأ الكهنة الفاضبون يحبكون حوله المؤامرات ، بل قيل انهم حاولوا اغتياله عدة مرات . غير انهم بدلا من أن يرهبوه اشعارا فيه عزيمة فرعونية حامية ، فأرسل رجاله فى أرجاء البلاد ليعظموا اسم آمون فى كافة النقوش . ولبمحوا كذلك اسم « الآلهة » التى تتعارض مع وحدانية الهه الجديد آتون .

ولكى يخلص نهائيا من خلفه كهنة آمون عمد الى هجر مدينتهم طيبة الى نقطة بعد عنها بثلاثمائة كيلو ، وهناك اقام عاصمته الجديدة فى المكان الذى يعرف اليوم بتل العمارنة . فى تلك المدينة البعيدة الجديدة ذات الحدائق الكثيرة والشوارع الفسيحة تمكن اخناتون لأول مرة من أن يملأ صدره بالهواء النقى ، بعيدا عن رائحة البخور الذى يتسرب من فتحات المعابد المقفلة على الاله الخفى آمون .

وفى مدينته الجديدة راح اخناتون يطور فلسفته عن الحياة فى الحقيقة أو فى « الصدق » . وعن طريق هذه

الفلسفة حدثت أكبر ثورة في الفن المصرى القديم ، فكف النحاتون عن صنع تلك التماثيل الجامدة « المنشئية » ، وبدأ الرسامون يصورون الاشياء كما يرونها في الحقيقة .

ولقد وجد اخناتون من الجرأة - تمشيا مع مذهبه في الحقيقة - ما جعله يسمح للفنانين بتصويره هو شخصيا كما يبدو في الحقيقة . ولو انك ذهبت الى المتحف المصرى لرأيت له تمثالا يجمع كل الصفات التى سردناها في البداية عند الكلام عنه ويبدو أشبه برسم الكاريكاتير .



غير ان التوحيد وحياء الحقيقة لم تكن فيما يبدو مما يتفق مع البلاد في ذلك الوقت ، وكانت نوعا من الترف الفكرى الذى لا يمكنه ان ينسجم مع المزاج الشعبى العام . ولقد أغلقت الهياكل والاماكن المقدسة التى اعتاد عامة الناس ان يؤموها . وحرم ذكر أوزيريس وما عاد الفلاح المصرى يستطيع ان يضع في حقله تمثالا صغيرا له لكى يطرد به الارواح الشريرة . وما عاد الراعى يستطيع ان يضع رغيفا وجرة ماء تحت الشجرة لكى ينجو من غضب الآلهة . بل ما عادت الامهات يستطعن ان يرددن ما تعودن عليه من الاسماء القديمة المقدسة والصلوات التى تطرد عن أطفالهن شياطين الليل والظلام .

فما كان أوزيريس لينهزم أمام آتون ، ذلك الاله الغريب الذى بلغ من التجريد درجة تكاد تحوله من اله الى معادلة رياضية بحتة .

ولقد أدت مصادرة الآلهة القديمة الى نتائج اقتصادية لا يمكن أن تكون قد خطرت على بال اخناتون حيث

يعيش في عزلته ونشوته الاتونية الخاصة. وانتهى الحال
الى خراب بيوت الطوائف النالية :

- المثالون الذين يصنعون تماثيل الآلهة وبييعونها
- خبازو كعك الشعائر الذي يباع في الاعياد الدينية.
- صناع التمايم وبائعوها على أبواب المعابد .
- الخطاطون والرسامون الذين يزينون القبور برسوم
وتلاوات من كتاب الموتى وغيره .
- الكهنة والمثلون الذين يقومون بالتمثيل الصامت
في الهياكل المقدسة .
- الاطباء الذين كان نصف علاجهم قائما على تلاوة
التعازيم !

كل هذا واخناتون لا يشعر أو يشعر ولا يكثرث ،
وسط أتباعه من سكان المدينة الجديدة الذين آمن
بعضهم بآتون حقا في حين آمن أكثرهم نفاقا وانتفاعا.
وفي برود تام تجاد الاحداث العامة في الداخل والخارج
واصل اخناتون استمتاعه بالحقيقة ، يتفسح هو
والحلوة تيتي بين الناس بملايس خفيفة تكشف من أجل
الحقيقة أكثر مما تستر . وأمام الناس لا يجد أى مانع
من أن يقبل الحلوة أو يمد يده الكريمة لكى يداعب
ما حلا له من أعضاء جسمها الملكى . ما شعر المسكين
أن عاصمته الهادئة المترفة الناعمة ما هى الا جزيرة
صغيرة وسط بحر من السخط والتذمر ، وان ملايين
اللعنات لا تبرح تنصب على آتون وعلى أسلاف أسلاف
الى جابه .

واذا كانت الفدد مسئولة عن تلك الصورة الغريبة
التي شكلت بها جسمه . واذا كانت هي التي ألهمت
حواسه بتلك العاطفة الدينية الحادة والهمته بكل تلك
الافكار والقيم الجديدة . فيبدو انها قد بدأت في النهاية
تنقلب عليه وتلهب حواسه بأشياء مختلفة تمام الاختلاف .
فلا بد ان شيئاً غريباً طرأ عليه حتى جعله في آخر الامر
يطرد الحلوة من قصره وينفيها في قصر آخر في أقصى
المدينة ، صاحباً منها لقبها الدبى الذى كان قد منحه
لها ومعطياً اياه الى أخيه الاصفر . ولا بد ان اختلالاً
كبيراً في الفدد المذكورة هو الذى جعله يداعب أخاه هذا
— كما يبدو في أحد الرسوم — بطريقة تتنافى مع علاقة
الاخوة ومع علاقة الذكر بالذكر على وجه العموم . ونكون
داهية لو ان المؤرخ السوفييتى فلكوفسكى كان صادقاً
فيما ذهب اليه من ان اخناتون هو المصدر المصرى لتلك
الاسطورة « اوديب الاغريقية » . وذلك بما عمد اليه
اخناتون — لا المؤرخ السوفييتى — من اقحام جسمه
الملكى في فراش السيدة والدته .



غير انها مجهولة جداً سن الفترة الاخيرة من حياة
اخناتون ، ومن الصعب على أى من المؤرخين ان يدلى
فيها برأى فاطع ، فلا أحد يعرف متى مات نبي التوحيد
ولا كيف مات ، ولا أحد يعرف على وجه اليقين ماذا
فعلت الحلوة بنفسها بعد ان تزلزلت . والذى يهمنا هو
انه ما كاد اخناتون يختفى حتى اختفى معه آتون
والدين الجديد ، فعادت كلمة آمون لاحتلال مركزها في
اسم أخيه توت عنخ ، وانطلق البخور من معابد طيبة
مقرونا بدعوات الكهنة على الفرعون الملحد الذى مات .

تمثال للحلوة

ناظرا الى ذلك التمثال الرائع لرأس نفرتيتى أشعر بحسد شديد للوغد الذى صاغته يداها ، لا لعبقريته الفذة فحسب وانما للمتعة النادرة التى لا بد أن تمرغ فيها طوال المدة التى استغرقها صنع التمثال . فلو اننى كنت مكانه لعملت حسابى على ألا تنتهى تلك المدة أبدا ، واقطع ذراعى ان قامت نفرتيتى من أمامى قبل عام كامل على الاقل !

اذ اتخيل الحلوة « نفرت معناها الحلوة » وقد جلست أمامى فى جلال هادىء على خلفية موسيقية مطربة ، وأنا أتأمل وجهها الجميل الحزين وأتفحصه والتهمه وأنهشه بتلك الحربة الوقحة التى لا يمكن أن تسمح بها الانثى لعين غير عين الفنان . فمن حقى بل من واجبى أن أتشرب هذا الوجه الى أعماق روحي ، والا فكيف أنجح فى أن أنطق به تلك الكتلة الصماء من الحجر الجيرى ؟ وما من شك فى ان نظراتى سوف تنحدر بين حين وآخر الى مناطق من جسم السيدة لا يبررها نحت تمثال لرأسها ، متجولا بعين الفنان الذواقة بين الكنوز الملكية الرابضة خلف الفستان الشفاف الذى تميزت به راقعة الفرعونيّات الشيك .

فهي متعة كما قلنا نادرة ، دعتك من المتعة الاخرى التي
تنتظرني هناك ، متعة الحوار الفكري مع ذلك العبقرى
الفد اخناتون ، نبى التوحيد الذى عاش فى الحقيقة .
فما أظن انه كان ليتركنى بمفردى مع الحلوة مدة
طويلة ، من ناحية لكى يستوثق من ان نظراتى اليها
نظرات فنية خالصة ، ومن ناحية اخرى لكى يأخذ
رأى زوجته وحبيبته فيما هو عاكف على كتابته من
الاشعار الدينية .

بكتفيه المنحدرتين وكرشه المنتفخ وفخذه الفليظتين
يدخل علينا سارحا متمهلا ، فى عينه نظرة حاملة متصوفة
وفى يده ورقة بردى وقلم .

— يا أيها الاله الذى ساغ نفسه بنفسه (هكذا ينشد
بصوت اعتقد انه رفيع — والكلمات للعلم من تأليف
أخناتون لا تأليفى) — يا صانع كل أرض وخالق ما عليها
.. أنت يا اله يا أوحد .. لقد خلقت الارض حسبما
تهوى أنت وحدك .. خلقتها ولا شريك لك .. يا من
تسطع جميلا فى أفق السماء .. يا آتون الهى يا بدء
الحياة ..

ثم ملتفتا الى زوجته :

— ايه رأيك يا حلوة ؟

فتلمع فى عين الحلوة نظرة اعجاب صادق وتقول :

— هايلة ياتونى ، هايلة !

تونى هو اسم التدليل الذى لايمكن ان تكون الحلوة
قد وجدت احسن منه ، والكلمات كما قالت رائعة
حقا . اول كلمات قيلت فى التاريخ عن الاله الواحد ،

فما حاجة امبراطوريتنا المتماسكة المتوحدة الى اكثر
من اله ؟ وينحنى تونى ليطلب على خد الحلوة قبلة
شاكرة ، ثم يولينا ظهره ويبعد بورقة البردى مهما
بتلاوات آتونية مبهمة .



وأتناول انا الازميل النحاسى والمطرقة الخشبية
وأشرع فى معالجة الحجر بما نسميه نحن الفنانين
« تهيشش الفورمة » ، واجف القلب بما يتناسب مع
تلك اللحظات التى ربما حددت مستقبل التمثال كله .
وبينما أدق بالازميل فيما سوف يصبح رأس السيدة
أراها تعتدل فى جلستها لكى تضع ساقا على ساق ؛
الامر الذى يوحى الى بفكرة .

— ما تيجى اعمل لجلالتك تمثال كلى ؟

فتهز رأسها وتقول : « تـ . . . » ، مضيفة على ماتعرف اننى
أطمع فيه من حق المعالجة الشاملة للجسم الجميل .
وشيئا فشيئا تبدأ معالم الرأس الخارجية فى الاتضاح ،
وصوت اخناتون يبلفنا قبل ان يدخل علينا ، مواصلا
انشاده من ورقة البردى التى تتأرجح فوق كرسيه
العظيم .

— انت الاب والام لكل ما خلقت . . اذا غربت فى
الافق الغربى أظلمت الارض واختبأ الناس فى الحجرات
وقد غطوا رءوسهم . . والسباع تخرج من جحورها
والثعابين تنسل لتلعلع . . بعد أن استراح خالقها فى
افقه الغربى . . . ايه رأيك يا حلوة ؟

— رائع ياتونى ، رائع !

ولكننى فى هذه المرة لا اشعر اننى راض عن كلامه
كل الرضا . فالغروب فى نظرى ظاهرة فلكية عادية
واذا غربت الشمس فليس هناك ما يدعو الى افتراض
ان آتون يستريح .

— يا خالق الجربومة فى المراة وصانع البذرة فى
الرجل .. يا من تهب الحياة للجنين فى احشاء امه
وتسكن من روعه فلا يبكى .. يا من تهب نسيم الحياة
لتحيا به كل مخلوقاتك ..

لابأس ياتونى ، ولا عجب ان نشيدك أعجب دأرد
فيما بعد فردده فى واحد من مزاميره . ويخرج فأواصل
انا العمل . وما أجمل هذا الجبين الاسمر الذى بدأ
يستدير بين يدي . فبينما انا أعمل افاجأ ذات يوم
بشخصية جديدة تطرأ على المكان ، سيدة فى أواسط
العمر قصيرة محندقة ذات جمال ماكر . السيدة «تى»
أم اخناتون وارملة امنحوتب الثالث ، التى لأسباب
لا أعرفها قد وفدت من قصرها بطيبة الى قصر ولدها
بتل العمارنة . من التمثال تقترب فى خطوات ثعبانية
وتقف لتتفرح ، لحظة من التأمل الصامت ثم تنبعث
منها ضحكة ساخرة :

— هههه ! حجر جبرى ؟ على ابامنا كانت السماتيل
جرانيت !

وتتجه متقصعة الى كنية قريبة لتجلس عليها ، فى
اللحظة التى يدخل فيها اخناتون وبين يديه ورقة
البردى الخالدة .

— أما الاشجار والنباتات فهى تزدهر .. وأما الطيور

فهي ترفرف خارجة من أوكارها تسبح بحمدك ..
وتعز الحملان على أقدامها ؛ كل مخلوق نهتز اعطافه ..
لأنك نشرق من أجلها يا آتون الحى ..

ومرة أخرى لا ارتاح الى كلامه . اذ أشعر ان الله
هذا يوشك أن يكون بشرا مثلنا ، والاله كما أحبه أنا
يجب أن يتنزه عن صفاتي وأن يكون مختلفا منفردا
ليس كمثله شيء ..

والملك في هذه المرة وقف يتلو النشيد على أمه لا على
زوجته ، واقفا أمامها بالورقة التي تهتز على كرسيه
القد .

— ايه رأيك يا مامى ؟

— شربات يا روحى شربات ! آمون يخليك ان
ياحبيبى !

فينتفض اخناتون كالمسوح :

— بتقولى ايه ؟ آمون !

فتضرب الارملة على صدرها :

— يوه يقطعنى .. قصدى آتون ! ما تزعلىش منى
ياتونى .

ومطبطة على كرسيه تجذبه لمجنس على الكتبة
بجانبها ، وعلى خده الملكى نطبع قبلة . والحلوة ترقب
المنظر وقد احمر وجهها ، صدرها يعلو ويهبط فيفضح
ما تشعر به من غيظ .

— قوم بينا نتمشى فى الجنيئة ..

وتنهض الارملة فينهض ولدها ، وتتأبط ذراعه
وبخرجان وهى تتلوى بذلك الجسم الشعبانى الذى لا بد

قد منح امنحوتب الثالث اكثر من ليلة لاذعة . وتقاطيع
الحلوة قد بدأت تكتمل بين يدي . الخدان الغائرا ،
والانف المديب الجميل . والجيد الناعم النحيل الذى
اتنازل عن عامين من عمرى لكى ادفن فيه أنفى .

وابتسامة عريضة فاتنة ترتسم على شففتيها حين
ترانى ادخل عليها ذات يوم بصندوق الالوان .

— خلاص ح تلوننى ؟

— خلاص يامولاتى ..

وفرحا لفرحتها اخرج الالوان واشرع الفرشاة وأبدأ
فى العمل . وهذه الزرقة السابحة فى بياض العينين
الجميلتين ، لابد أن اقرب من الحلوة كى احقق فى
عينيه . عطرها يملأ صدرى ويسكرنى . واختلاجة
صغيرة فى زاوية فمها وقد تقابلت عيوننا فى تلك اللحظة
من النشوة الفنية الغامرة . قريبة منى حتى اكاد
الامسها غير انها فى الوقت نفسه — ما تعسنى — ابعد عني
من بلاد بونت . ولكنى أمنى نفسى بأن تضيق المسافة
بيننا عندما يكتمل تمثالها وتعرف أى عبقرى أنا ..

ثم التفت ورأى فتصدر منى شهقة مباغتة ، اذ
افاجأ بأخنائون واقفا برقب المشهد وقد تدلت ورقة
البردى فى يده بجانب فخذه الفليظ . وبسرعة انزفل
الى التمثال لكى أضع اللمسة الزرقاء فى بياض
العين ، كى يعرف الرجل اننى لم أكن العب . ويقبل
بنفسه لكى يلف ورأى ويرى عملى ، نظرة ينقلها بين
التمثال وزوجته ثم برفع ورقة البردى أمام عينيه .

— وأما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم

السفلى .. لتحى به البشر ياسيد الجميع .. فاذا
ما ..

— تونى .. تونيتونى !

صوت للأرملة الطروب يقاطعه مناديا آياه من الخارج ،
فيولينا ظهره ويبتعد وهو يواصل المهمة . ونظرة غيظ .
تترأى فى عين الحلوة فأتوقف حيناً عن العمل مخافة
أن تطلع تلك النظرة فى الصورة . والظلال المصفرة
الخافتة فى وادى خدها الظليل ، واللون الوردى الجرىء
على الشفتين الدسمتين اللتين أدفع عاما من عمرى
لكى الصق بهما شفتى .

— عاوزه اتفرج ...

هكذا تقول لى فأرفع يدا معترضة ، مخبرا أباهما بأن
فنانا حساسا مثلى شأنه أن يرتبك اذا تفرج الناس على
عمله فى طور تكوينه ، وخير لها أن تراه عندما يكتمل
حتى لا تحرم من فرحة المفاجأة .

— أصلى نفسى أشوف نفسى ...

— ح تشوف فيها فى الوقت المناسب يامولاتى ...

وابتسم لها فتبتسم لى ، وأشعر ان المسافة قد بدأت
تضيق كما رجوت ، وأن شبيئا جميلا قد بدأ يتولد
بيننا عبر تمثالها الفاتن . فلولا شبح اخناتون الذى
يجثم علينا الأمكننى أن ...

— خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر .. ولقد تفرقت
ألسنتهم واختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم .. وهكذا
ميزت بين الشعوب ..

مقاطعة جغرافية تزعجنى طبعاً ، ومقاطعة أخرى كانت

ننتظر اخناتون نفسه . اذ يندفع الى الحجره فائد من
قواد الجيش وهو في حال من الفلق الشديد لى يقول
بصوت متلعثم :

— سوبيلو ليوماس يامولاى !

فينظر اليه اخناتون فى بلاهة :
— سوبيلو ايه ؟

— سوبيلو ليوماس ، ملك الحيثيين يامولاى ..
— ماله ؟

— هجم على سوريا !
— هجم على سوريا ؟ ..

— ايوه يامولاى ...
— وخدها ؟ ..

— لسه شويه . وعاوزبنا ضرورى نبعت لهم و و
خمسين عسكرى !
— كده ؟ ..

— ايوه يامولاى ...

— طب روح انت وسيبنى افكر فى الموضوع ..

فيخرج الرجل وتشرد نظره اخناتون حسنا الى الارض .
ثم يرفع ورقة البردى ويصحح فيها بالقلم شيئا .
ومتنحنحا لانبيهه الى اننى اريد العمل فى هدوء اشرع فى
بظليل الانف الجميل للحلوه سمهلا متأنيا مشفقا من ان
ينتهى التمثال واحرم من هذه الجلسات اليومية الحلوة

— موش ح تخلص بقى ؟

هكذا نسألنى الحلوة كل يوم فأقول لها : هان .
والواقع ان التمثال يعتبر فى حكم المنتهى ولكنى يجب

ان اؤجل لحظة الفراق اطول وقت ممكن ..

— كل اعيون برنو اليك .. لانك اتون الذى يشرف
على الارض .. انك فى قلبى .. ليس هنا من يعرفك
سوى ولدك اخناتون ..

وهذه وحق اتون انانية صريحة سافرة كتب احب
ان اعلق عليها لولا دخول القائد سالف الذكر مندفعاً
كالمجنون :

— خدها يامولاى !

— هو مين ؟ ..

— سوبيلو ليوماس !

— خد ايه ؟ ..

— خد سوريا !

— كلها ؟ ..

— ايوه يامولاى .. ماهو لو كنا بعثنا له حبة عساكر .
فيرفع اخناتون يده مفاطعاً :

— بس ! روح انت وسيبنى افكر فى الموضوع .

فيخرج الرجل وتشرد من جديد نظرة اخناتون
نحو الارض .. ومع الشرود هذه المرة شىء من النفخ الذى
يعرب به عن انزعاجه الشديد من هذه المقاطعات التى
تفسد عليه هدوءه وشاعريته . ثم يرفع ورقة البردى
أمام عينيه ويواصل الانشاد :

— نعم ليس هناك من يعرفك غير ولدك اخناتون ..
وقد خلق العالم وجعلت الناس يحيون ... كل
ذلك من أجل ولدك الذى نشأ منك !

واذا كانت السابقة انانية فهذه لا تخرج عن كونها
ندالة . فليس يمنعنى من توبيخه سوى ما اذكر من
قول الحكيم بتاح حوتب :

— احن رأسك لرئيسك والمشراف على قصر الملك
لكى يظل بيتك مفتوحا !

فما بالك وهذا الانانى هو الملك نفسه ؟
— تونى ... تونيتونى !

صوت الارملة الطروب يناديه من بعيد فيخرج ملبيا
— اف بقى ! موش ح تخلص ابدا ؟

هكذا تقول الحلوة وقد نفذ صبرها . ولمسة نهائية
على أنفها الجميل ثم اقول لها فى انتصار:

— خلاص يامولاتى ! تفضلى شوفى .

فتهب من مقعد الموديل كطفلة فرحة ، وأمام صورتها
تقف متسلسلة العينين فاغرة الفم ، مفتونة مبهورة
مسحورة متلاحقة الانفاس تلهث :

— ياسلام .. ياسلام .. ياسلام ..

— عاجبك يامولاتى ؟

— هايل ! رائع ! مدهش ! جنان !

وتحيد ببصرها لتنظر الى وكأنها ترانى للمرة الاولى ،
لكى تأخذ فكرة عن الرجل الذى جادت عبقريته بهذه
التحفة المستحيلة . ثم ترد بصرها الى التمثال وقد بدأ
عليها شيء من الحيرة .

— لكن عاملنى حزينة كده ليه ؟

— موش أنا يامولاتى اللى عملتك حزينة ..

— يعنى أنا شكلى حزين كده ؟

فأريد أن أقول لها — ولا أفعل طبعاً — أن حزنى أنا هو الذى ربما يكون قد انعكس على صورتها ، حزنى على هذا الجمال الذى ليس لى سوى أن أحبه صامتاً .

وتواصل هى تأمل التمثال ثم تقول :

— أنا موش ح اســـــــــيبه هنا . ح انقله لقصرى
الخصوصى ..

— لكن مولاتى عايشة هنا ...

— موش بعد النهارده .. أنا كنت مستنيح لما
التمثال يخلص ...

وتشير الى خارج المكان شارحة :

— موش شايفه هو وأمه عاملين ايه ؟

فيرتعد قلبى بشدة وأنا أقول :

— بس فيه حاجه يامولاتى ...

لحظة من التردد ثم أضيف :

— التمثال ناقصه شوية رتوش ...

فتصوب الى بعينيها الفاتنتين نظرة طويلة صامتة ،
ولمسة مكر تتراءى فيها وهى تقول بابتسامة مغرية :

— ما تيجى تعملها هناك ؟

وتتركنى وتبتعد ، غير ناسية قبل أن تخرج أن تلتفت
مودعة أياى بابتسامة عذبة من فوق كتفها . وعواطف
جياشة تجرفنى ، ودق شديد فى قلبى لا أستغرب أن
يصل صـــــــــوته الى سوبيلو ليوماس ! فهناك فى قصر
الحلوة الخاص لا أشك فى أن العمل سيكون أمتع منه
هنا وسط ماجريات التاريخ . وذات يوم فى أواخر

الأصيل قد تجتمع حول تمثالنا المشترك لكي تشرب
نخباً أو نخبين ، من النبيد الحلو الذي علمنا أوزيريس
صنعه فأحسن تعليمنا . وعندئذ سوف أشعر بأن عبور
الحلوة في حاجة ماسة إلى شيء من الرنوش . وممها
اقترب كما فعلت من قبل نثهل من عطرها ومن الزرقة
السابحة في بياض العين . واختلاجة جديدة حلوة في
شفتيها تدعوني إلى تتويج علاقتنا بما هي جديرة به ،
بينما ينحدر آتون خلال قوس قزح من السحب الملتهبه
ليرتاح في أفقه الغربي !

حتشبسوت وأنا

للأجيال القادمة أكتب هذه الكلمات - أنا سينموت
كبير المهندسين ببلاط تحتمس الثانى - معترفا بأننى
لم أنجح قط فى أن أحب هذا الرجل ، بلامحه الانشوية
وشعره المشط بعناية زائدة ، وبما يقصه الجنود من
أنه فى المعارك القليلة التى خاضها كان دائما واقفا فى
مؤخرة الصفوف يتحسس شعره ، على العكس من
والده العظيم تحتمس الاول . وليس هذا غريبا ، وقد
ولد لأبيه العظيم من إحدى المحظيات ، إذ لم تلد له
الزوجة الملكية احموس الا بنتا واحدة هى حتشبسوت .
ولقد تردد أن تحتمس الكبير كان يحب أن يورث
العرش لتلك البنت الجميلة لولا تقاليد البلاد التى لم
تسمع حتى ذلك اليوم بملك مؤنث . وهكذا صار العرش
حقا لذلك التحتمس الثانى ، وذلك بعد أن يتزوج -
وفقا لنفس التقاليد العتيقة الصارمة - من الوارثة
الشرعية حتشبسوت .

ولكم رثبت لها يوم أرغمت على هذا الزواج التعس ،
فأى نفع يمكن أن تجده تلك الفتاة ذات الحيوية الدافقة
فى أحضان ذلك الشاب البنوتة ؟ وما دمت فى نوبة
الاعتراف فأقر بأننى أحببتها من أول مرة رأيته فيها ،
ذلك الحب الذى كان مكتوبا له بالطبع أن يكون صاوتا

حزينا . ولعلها استشعرت اخلاصى لها من نظرات عيني
فأسندت الى - بجانب وظائفى الاساسية - وظيفة
المشرف على تربية طفلتها نفرو رع ، كبرى الطفلتين
اللتين لا أفهم كيف نجح زوجها فى انجابهما منها . وكان
بطريقة أكثر غرابة قد نجح فى أن ينجب من احدى
المحظيات ولدا أسماه تحتمس ، وهو الحادث الذى
كان سببا فى كل ما أعقب ذلك من المتاعب . فوفقا
لمفهوم تحتمس الثانى كان من الطبيعى أن يخلفه ذلك
الولد فى الحكم ، وذلك عن طريق تزويجه هو الآخر من
أخته نفرو ، وهو ما كادت تسمع ذلك من زوجها حتى
ضربت على صدرها فى فزع قائلة :

— ياندامتى !.. بنتى أنا تتجوز ابن ال . . . ده ؟
ياخى ده بعدك انت وهو !

فانكتم تحتمس الثانى ولم يقل شيئا ، ولكن مؤامرة
دنيئة كانت تحاك فى ذهنه المريض . وكان الولد أكثر
من الخامسة بقليل عندما رأى أبوه أن ينفذ تلك
المؤامرة منتهزا فرصة أحد أعيادنا الدينية . فبينما
سار موكب كهنة آمون وقد حملوا تمثال الاله كالمعتاد،
تنكب الموكب فجأة عن طريقه المرسوم - بايعاز من
الملك - واتجه الى حيث يجلس تحتمس ، متوقفا عنده
ومفصحا بذلك عن رغبة الاله فى أن يكون هذا الطفل
ملكاً . وانى لا ذكر كيف استولى الذعر على الطفل
المسكين حتى صرخ وأراد أن يجرى فتعثر وانكفاً على
وجهه وهو يجعر .

وأذكر اننى رأيت الدموع فى العيون الحـلـوة

لحتشبسوت وهى تقول لى :

— ده . فصل يعمله فى ده ؟

— هو فى الحقيقة فصل موش ملكى بالمره . بس
طبعا جلالتك عارفه مين والدته جلالته .

وكان من أثر هذا الامر أن اضطرت حتشبسوت الى
الانصياع لرغبة زوجها ، فتم له ما أراد من تزويج
تحتمس لنفرو لكى يرث من بعده عرش البلاد .

وذاث يوم اتانى نبأ لا ادعى انه احزننى كثيرا ، عن
ارتفاع تحتمس الثانى الى السماء — كما يقول النبأ —
لكى يندمج بين الآلهة . وما اظن ان حتشبسوت هى
الآخرى كانت حزينة ، عندما دعتنى ذات ليلة لكى
تأخذ رأى فى الطريقة التى يجب أن نتبعها فى احباط
أثر المؤامرة المشار اليها سالفا . ففكرت فى الامر حينما ،
توطئة لان أقول :

— شوفى لنا قزازه ..

فرمقتنى فى بلاهة زادتها جمالا :

— قزازه ! .. قزازه ايه ؟

— نبيت ، بيرة ، أى حاجه علشان الواحد يفكر
بمزاج ...

فصفقت وما هى الا ثوان حتى رأيت أمامى بارا كاملا ،
والنبيد كما أكدت لى السيدة معتق من أمام امنمحتب
الاول . فصبيت لها كأسا ولنفسى آخر ، وراشفا من
دماء أوزيرس المباركة قلت لها وأنا أستنفر كل ما فى
نفسى من أصول الحكمة ...

— شوفى يامولاتى .. موش جلالته عابز يفهم الناس

ان آمون بنفسه هو اللي اختار ابنه تحتس ؟

— ايوه ...

— طظ ياسنى ! برضه جلالتك احق بالعرش منه ..

— على أساس ايه ؟

— على أساس ان جلالتك تبقى بنت آمون مباشرة !

فازداد وجهها لشدة دهشتها جمالا ..

— انا بنت آمون ؟

— ده اللي لازم الناس تفهمه ..

وشرعت أحكى لها كيف ان السيدة أحموس ..

والدتها — كانت نائمة في مخدعها ذات ليلة عندما انتبهت

الى عطر عجيب يملأ الحجرة ، وفتحت عينيها لترى

آمون بنفسه واقفا بجانب اسرير بتامل ما برز من

مفاتنها الملكية ، توطئة لان يقول :

— لقد اخترت ان تكون لى منك بنت اسمها

حتشبسوت ، وقررت لها ان تحكم البلاد .

فذهلت الملكة من هذه الكلمات . كما سبها

جمال الاله فهتفت تقول :

— ما اعظمك وما اجمل وجهك .. وما احلى ان

تضمنى اليك ...

فلم يكذب الاله خيرا . رقى الصباح استدعى اليها

آخر هو خنوم صانع البشر . واليه ادلى بهذه

التعليمات :

— لتصنع ابنتى هذه وقرينتها من اعضائى هذه ،

ولتشكلها بجمال لا مثيل له بين الالهة ، فسامنحها كل

شئ لتصبح مثل رع الابدى .. فاهم ؟

وكان آمون ما طلب ، وما هي الا شهور حتى
وقف الاله تحوت بنفسه ليشرف على الالهة المولدة
سيشات وهي تتلقى على يديها الطفلة حتشيسوت . وقال
عنها الالهة حتحور فأحسنت القول : لقد امتلكت
البلاد وكل ما تظله الارض والسماء بينما كانت في بطن
أمها .

— ايه رأيك بامولاتي في القصة دي؟ هي طبعاً ناقصها
شوية تفاصيل انما يعنى ...

فقاطعتنى وهي تقول بانفعال شديد :

— دي قصة هايلة ! انت عبقرى ! انت مدهش !
اشرب كمان .. اشرب ...

وملأت كأسى بنفسها وقرعنا الكأسين نخب قصتنا،
ولكن شيئاً من الخوف تراءى فى عينيها .

— لكن تفكر حابوسنب يوافق على نشر قصة
زى دي ؟

حابوسنب لعلم الاجيال القادمة هو كبير كهنة آمون،
وقلت لها شارحاً :

— انا شاف ان منصب حاكم الوجه القبلى خالى
من مدة . ومتهياًلى ان حابوسنب ما يتأخرش عن
الجمع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية .

وتلاقت عيوننا بنظرة مأكرة وقرعنا الكأسين من
جديد . واذكر ان الطفل تحتمس دخل علينا فى هذه
اللحظة هو ونفروع فقالت له عمته :

— انت لست — مانتمش ياتوتى ؟ خديه بانفرو
وروحوا ناموا .

فخرج الطفلان وتركانا وحدنا ، وكأس خامسة شعرت انها معتقة من عهد خوفو . وفي عين حتشبسوت تراءت نظرة غير ملكية فتننتى ، وفي الصباح كنت قد أصبحت بأمرها صاحب الوظائف التالية : حامل ختم ملك الوجه البحرى . ومدير الحقول والحدائق والابقار وأرقاء الارض وشئون غلال آمون ، ومراقب البهو الفسيح فى البيت الرسمى ، ورئيس بيت الداج الابيض ، ومدير المقر الملكى . ومراقب جميع الصناعات الالهية .

ولكننى بالطبع لم أمارس بالفعل ايا من هذه الوظائف مكتفيا بأن أقبض أجرها ، وذلك لانشغالى بما هو أهم وأبقى ، بناء معبد لحتشبسوت فى الدير البحرى ، على جدرانها تصور بالالوان الزاهية تفاصيل ذلك الميلاد الالهى لصاحبة الجلالة .

وذات يوم أقبلت حتشبسوت لتتفرج على العمل - مسرورة طبعاً - ثم لحق بها الفلام تحتمس الذى أصبح فى العاشرة من عمره .

قالت له حتشبسوت بنوع من السرور :

- شايك الصور الحلوة دى ياتوتى ؟

فاحتقن وجه الفلام وتطاير الشرر من عينيه :

- قلت لك ألف مرة أنا موش توتى ! أنا تحتمس

الثالث ... فاهمه ؟

فضحكت حتشبسوت وقالت :

- معلش يا صاحب الجلالة ..

ومدت يدها لتداعب شعره فدفعها وأبتعد وهو

يبرطم . وهذا عيب أطفالنا - نحن المراعنة - انهم يكبرون
أسرع من اللازم . وفيما يشبه غمضة عين رأيت أمامي
فتى يقترب من العشرين ، قصيرا عريض الكتفين
مدكوك العضلات . غاضبا أشد الغضب وقد عرف ان
حتشبسوت سوف ترسل الى بلاد بونت اسطولا معريا
في بعثة سلمية .

- سلمية عشان ايه ؟ « هكذا صاح » ليه ما تكونش
حربية ؟

فرمقته حتشبسوت في برود وقالت :

- وليه ما تكونش سلمية ؟

- وليه ما تكونش حربية ؟

فردت عمته وهى تحاول المحافظة على هدوئها :

- وليه ما تكونش سلمية ؟

- لاننا لازم نحارب .. لازم نورى الدنيا قوتنا !

- الدنيا عارفه قوتنا كوس ، والبركة فى جددك

تحتمس الاول .

- وليه ما نعملش زى جدى ؟ ليه ما نفتحش آسيا ؟

- ونفتحها ليه ؟

- عشان تبقى بتاعتنا ...

- تحب حد يفتح مصر ؟

- لا طبعا ...

- طب ليه نفتح آسيا ؟

- ده سؤال حريمى ! البلد دى موش نافعة طول

ماحاكماها ست !

وهنا نفذ صبر حتشبسوت ..

— ولد ! أنت عارف بتكلم مين ؟

— أبوه عارف .. عمى ومرات أبويا وحمى — اتى
وحرامية عرشى !

وخرج بسرعة قبل أن يتطور الموقف . وسمعت انه
فى ذلك اليوم قتل أسدين وسيد قشطة . ولم يكن هذا
الحادث ليمر دون أن يترك أثره على حشيشوت نفسها ،
فلم أدهش كثيرا عندما رأيتها بعد أيام محمولة على
محفتها الملكية وقد تدلت من ذقنها احية مستعارة .
كأنها تريد أن تقول للناس أنهم اذا كانوا يريدون رجلا
لمنصب الملك فهى أرجل من أجدها رجل ! وشكرا لآمون
على اننى حين زرتها فى المساء لم أجدها بتلك اللحية
المضحكة ، فلا شك ان رجلا حساسا مثلى لن يحمو له
السهر مع سيدة ملتحية .

ولست محتاجا بالطبع الى أن أصف لك مدى الحزن
الذى دهمنى فى ذلك اليوم المشؤوم من سنة ١٤٨٣ قبل
الميلاد ، عندما ارتفع الصراخ والعيول فى قصر مولاتى
معلنا عن وفاتها المفاجئة ، وأكاد أقسم انها ما ماتت
بل قتلت بطريفة أو بأخرى . كثيرا ما سمعنا عن رجل
يقتل عمته ليرثها ، أو يقتل زوجة أبيه لينجو من
أذلالها ، أو يقتل حماته ليخلص من خلقتها ، فما بالك
وهذه السبدة عمة تحتمس وزوجة أبيه وحماته فى
وقت واحد ؟

وبقلب يتمزق من الحزن وقفت أرقب رجال الملك
الجديد وهم ينهالون بالاعاءلء تماثيل مولاتى فيحبسونها

حطاما ، ثم يتجهون الى المعبد الذى أفنيت فيه عمرى
لكى يشوهوا جدرانہ ويزيلوا منها كل اشارة لاسم
السيدة العظيمة التى بنته .

ودقات طبول الحرب بدأت تدوى فى أرجاء المدينة ،
وأدركت ان أيام السلام الحلوة قد ذهبت الى الأبد .
وطابور طويل من العجلات الحربية يقف فى الطريق
ومقصده آسيا . عجلة وراء عجلة تمر أمامى وأنا وراء
القضبان الحديدية التى تسد نافذة حجرتى فى سجن
طيبة العمومى !

سهرة عارية

كان يسرنى أن أكون صديقا لواحد من نبلاء الفراعنة الذين خلفوا لنا في قبورهم تلك التشكيلة الفذة من الرسوم الرائعة ، مثل النبيل نخت الذى تزين جدران قبره الصورة الشهيرة للعازقات الثلاث ، وبنات كثيرات غيرهن يتقصعن على الجدران شبيه عاريات ، حتى ليحار المرء هل هو فى قبر أو فى كباره !

أو النبيل « منه » الذى تنتشر على جدران قبره صور له وهو يشرف على عمليات الزرع والقلم وخبز العيش وصنع البيرة ، مصرا على أن يحتفظ لنفسه فى الآخرة بنفس الآلاطة الادارية التى لازمته فى الدنيا .

أو النبيل الثالث رخمريع الذى صور نفسه على الجدران وهو يحصل النقود من الاهالى محولا المكان من قبر الى مأمورية ضرائب .

لاشك اننى كنت استفيد كثيرا من صداقة تربطنى بهذا النبيل أو ذاك ، لا من الناحية المادية فحسب ، وانما من الناحية الثقافية أيضا . ففى كثير من المناسبات لابد أنه كان يدعونى لقضاء الويك اند فى ضيعته الكبيرة بريف طيبة ، وانت تعرف مدى حبى للريف ، وفى الحقول انطلق معه لكى نشرف على الزراعة سائرين على الافدام أو مضطجعين على محفتين عاليتين يحملهما عدد من

العبيد . الحقول حولنا خضراء جميلة فسيحة ، وللاين
العيدان تتمايل بأنفاس أوزيريس المباركة . والترع
والقنوات مملوءة بدموع ايزيس الجارية ، على سطحها
يطفو البط والوز الذى سنحشو به بطوننا فى حفـال
الليلة الساهر . ومع هذا الجمال الطبيعى لمسة علمية
تتمثل فى بعض الاختراعات الجديدة التى تفتقت عنها
عبقريـة المهندس الفرعونى المعاصر ، وخـذ مثـلا هـذا
الاختراع المذهل المسمى بالشادوف ، كيف كان لنا
بدونه أن نستخرج الماء من تلك الاعماق ونرتفع به الى
تلك الاعالى ؟ او المحراث ذو السكين الذى يجره ثوران
فيحـرث لنا الارض ولا الحوجة للعزق بالفأس . فريـعنا
كما ترى لا يشهد على عبقريتنا الزراعية فحسب ،
وانما على ما قد بدأنا نأخذ به من أسباب التقدم
التكنولوجى .

وصوت صراخ افلاح حاف عار ضامر معروق وقد
طرحه بعض الاتباع أرضا وهات يا ضرب ، وبسؤالى
عن سبب العلة أفهم انه متأخر فى سداد ما عليه لكل
من النبيل ومصلحة الضرائب ، وان تلك هى الطريقة
الوحيدة التى ترغمه على السداد . فاذا لم يدفع الفلاح
ما عليه من الضرائب كيف كان لمولانا المعظم تحتـمس
الثالث أن ينتصر على الاسيويين فى مجدو، وأن يقتل فى
أوقات فراغه مائة وعشرين فيلا ؟ وكيف كان يتاح لنا
نحن - يقول صديقى النبيل - أن نقيم حفلة الليلة تكريما
لكاهن آمون الأكبر ؟

والى تلك السهرة تهفو نفسى بشدة ، وساعة كاملة

قبلها أقف أمام المرأة لكي أستكمل زينتي . خط
أسود رشيق أرسمه على كل من حاجبي بنوع خاص
من الكحل . أشسبه بخطين أضعهما تحت جبينى
الوضاء . وباروكتى السوداء أجرب تركيبها على راسى
فى أكثر من وضع حتى أحرر أفتن الاوضاع . وعلى
صدرى أسوى خيوط الخرز المزجج الذى يتدلى من
فلاذتى الجميلة . وكل ذلك طبعاً بعد أن أكون قد طليت
بالحناء اظافرى شذن كل جنتلمان فرعونى شيك .
» ملحوظة : هذه الاجراءات حقيقية وليست من اختراع
الكاتب .

على باب البيت يستقبلنى صديقى النبيل بصفتى من
الصفوة ، ثم يصحبنى الى البهو الفسيح الفخم الذى
يرتفع سقفه على عدة أعمدة رشيقة تتوجها زهور
اللوتس . يريد منى أن اتخذ مجلسى معه على المنصة
الرئيسية المرتفعة ولسكنى أعتذر عن ذلك ، إذ إن
يلبث الكاهن أن يصل وأنا كما نعرف يا صديقى النبيل
لا أحب مجالس الكهنة . خير لى واحدة من تلك
الوسائد الجلدية الجميلة المرصوة هناك جنب الحائط
غير بعيدة من صف قدور التبيد .

على الجدران حولى عشرات من الرسوم الفاتنة
لزهور مختلفة الالوان وفاكهة ، ولطيور مذبوحة تتدلى
رءوسها وتحيط بها بشاعرية لذيدة أكاليل العنبر
والخشخاش ، فالمرء كما ترى يبدأ فى الجوع بمجرد أن
يوجد فى تلك القاعة . ومنظر شديد الجمال يقترب
منى ، لساقية متأودة الجسم سمراء تنحنى أمامى

باسمة وتهديني على سبيل التحية زهرة لونس . الى
أنفى أرفع الزهرة وأنهل من عطرها . بينما أنهل من
مفاتن الجسم الجميل أمامي ، اذا انها اذا استثنينا تلك
الاسورة من معصمها وذلك العقد حول جيدها وذلك
الحزام الرفيع حول خصرها وردفيها لا تلبس أى شيء
على الاطلاق . يستطيع صديقي النبيل بالطبع أن
يصرف لها ما يكسوها ، ولكنه في تلك الحال ما كان
يمكن أن يكون صديقي . واذا أنت عرفت ان هذه
الساقية واحدة من عشرات غيرها تتجولن في المكان
لادركت بعض فوائد صداقة النبلاء لاسيما اذا كانوا من
الاسرة الثامنة عشرة .

شيئا فشيئا يتوافد الضيوف حتى تكتظ القاعة
بالناس رجالا ونساء . على المنصة العالية حول النبيل
والكاهن وعلى المقاعد المنتشرة في القاعة وعلى الوسائد
الجلدية حولي . وتقترب الساقيات الفاتنات بكثوس
النبيد ويدور الشراب . . وسرعان ما تتورد الوجوه
وترتفع الاصوات وتلعلع الضحكات ويفوص الجميع في
بحر المرح الدافئ .

والموسيقى قد بدأت تتردد في المكان والعاذلات مثل
الساقيات حسان شبه عاريات . بأصابعهن الرشيقه
المدرية يداعبن أوتار القيثارات والطناير أو ينفخن في
النساي . وأخريات يقطعن بالصنوج ويصلصسان
بالشخايل غير اللواتي يصفقن على الواحدة ، شيء وحق
آمون آخر طرب . وعدد من الخدم يدخلون بعشرات
الصواني المحملة بأكداس من اللحوم والخضروات ومن

الوز والبطل الذى رأيتـه فى الصـباح طافـيا على دموع
ايزيس الطاهرة .

وفى حفلة كهذه لا مفر من أن التقى بتلك السيدة
الفرعونية التى تركت أثرا يقول على لسانها :

— اعطنى ١٨ قدحا من النبيذ كى أشرب حتى
أنشىء ، فان جوفى من شدة الظمأ مثل القش ! فما أن
أراها داخلة حتى أبتسم لها وأطبطب على الوسـادة
المجاورة داعيا اياها للجلوس بجانبى ، تلك الدعوة التى
أستبعد أن ترفضها . وعطر شديد نفاذ ينبعث منها
وهى تعتدل لتجلس ، وعلى وجهها الجميل من ألوان
الزينة ما يشبه قوس قزح . مثل سائر المدعوات اللواتى
يتأملن ملابس وباروكات بعضهن البعض ويتراشفن
بنظرات فرعونية لاذعة . وناهلا من عطر جارتى أذكر
نصيحة الحكيم بتاح حتب التى تقول :

— احذر المرأة الاجنبية فهى لجة عميقة الفور لا يعرف
تيارها .

ولكن الانسان فى تلك اللحظات يعرف ان أحسن ما
فى اقوال الحكماء يمكن تجاهلها .. واننى لمشتاق
الى الفوص فى تلك اللجة العميقة .

وما هما الا كأسان تشربهما جارتى الحسناء حتى
تترأى فى عينيها نظرة فرعونية نشوى وسرعان ماينبسط
لسانها :

— موش فاكـره انى شفتك قبل كده ..

هكذا تقول بصوت لاد أن تكون فيه بحة مطربة
فأقول لها :

— أصلى موش م القرن ده .. انا م القرن العشرين

فتظنها نكتة وتضحك .. واسألها لكى اكون على بينة :

— حضرتك متزوجة ؟

— ههيه .. مرتين .

وبلسان بدأت تلويه الخمر تحكى لى كيف كان
زوجها الاول من أنصار حتشبسوت فحبسوه ومات فى
السجن ، وكيف كان زوجها الثانى من أنصار تحتتمس
فسقط شهيدا فى مجدو .

— انا آسف جدا ..

— ولا يهملك ...

وتقرع كأسى بكأسها التى أظن انها السابعة ، وصوت
مطربة قد بدأ يلعلع فى المكان ...

— انا أختك الاولى .. انا لك كالحديقة التى غرست
فيها الازهار .. انا أسيرة حبك .. قبلتك وحدها هى
التى تبعث الحياة فى قلبى .. وعندما أنالها سأدعو آمون
أن يحفظها دائما والى الابد ..

أتمايل من الطرب وأقول يا وعدى ، وأصوات كثيرة
تطالبها بالاعادة وما كانت بالطبع — كمطربة مصرية —
محتاجة الى تلك المطالبة . واحدى الساقيات تقترب
منا بصينية عليها أقراص صغيرة مثل العجين فتلتقط
قرصا تضعه على رأس جارتى والآخر على رأسى .

— ودى فايدتها ايه ولا مؤاخذه ؟

هكذا أسأل جارتى فتقول انها نوع من الدهون العطرية
المجمدة .

— وح افضل شايلها على دماغى كده ؟

— لا ما تخافش .. كلها شوية وتسيح !

وهنا أتذكر أمرا ..

— ما قتلش اسمك ايه ؟

— نزلت ، وانت ؟

— محمرع ..

— هههه .. عاشت الاسامي !

وتشرب كأسها العاشرة بينما نواصل المطربة الفناء .

— صوت اليمامة يتحدث الى . انه الفجر . اليس
في نيتك الخروج ؟ لا أيتها اليمامة لقد وجدت حبيبي
في فراشه ففاض قلبي سرورا .

والله ما فاض سرورا غير قلبي أنا ، هناك حيث
أتربع على الوسادة بجانب القطة نزلت . واحساس
بشيء يسيل على جانبي رأسي وينزل على عنقي ، فأبذل
أصبعي منه وأشمه في دهشة :

— ايه ده ؟

فتضحك نزلت من جهلي وتقول :

— موش قلت لك ح يسيح ؟ دنت باينك موش من
القرن ده بصحيح !

وتشرب كأسها الحادية عشرة بينما تواصل المطربة
الفناء .. ما أدري والله هل أسكر من النبيذ أو من الفناء
أو من الوز المشوى أو من عطرنا الفواح . وراقصة
أفعوانية تتسلل الى المكان وتشرع في الرقص المحموم ،
وبين حين وآخر تميل برأسها الى الورا حتى توشك
أن تقع ، ولكنها تنحني كالقوس وتستند براحتيها على
الأرض وراء رأسها . كل العيون جاحظة في كل الوجوه

حتى وجه الكاهن ، ويعد يده ليحكم الازار حول فخذه .
- حاسب شوية عينيك ح تنط من وشك !

هكذا تقول لى نرمت وهي تلسكزنى توطئة لان برفع
الى فمها كأسها الخامسة عشرة ، فاقول لها لاحذرهما :

- ماسمعتيش نصيحة الحكيم امحوتب ؟
- قال ايه بسلامته ؟

- الخمر تطلق اللسان فحاذر ان بفرط فى الشراب .
وهنا يرتفع صوت المطربة قائلا :

- لقد استمعت الى نصائح امحوتب التى يرددها
الناس فى كل مكان ، . أين هم الآن واين مسكنه ؟ لقد
سقطت جدرانها وصار أثرا بعد عين !

فتلكزنى نرمت من جديد قائلة :
- سامع ؟ أهى ردت عليك !

وترفع السكاس وتجرع ، بينما امصمص رقبة اوزة
لا ادري لماذا تذكرنى بالفلاح الذى رأيتـه يضرب فى
الصباح . ولسكننى بالطبع اتناسى المنظر وأمد يدى الى
خصاية على بركة الاله مين .

- امرح حتى ينسى قلبك انك ستدفن يوما . . وانبع
رغباتك طالما انت حى . . ضمخ نفسك بما وهب الله لك
من روائع الحقيقة .

وبانتهاء جازنى من كأسها تبدأ فى الغناء مع المطربة
مترقصة على الوسادة :

- انتى سكرتى !

هكذا أحذرهما فتقول :

- موش أنا اللى أشكر . .

- طيب أنا بح أمحتحك . . .

— ازای ؟

— قولى حشيشوت ...

فتقول حشيشوت وحشيشوت وحشيشوت وحشيشوت وغير ذلك من التباديل دون أن فصل الى حشيشوت أبداً .

— عرفتى بقى انك سكرانة ؟

— ولو ... أنا لازم اكملهم تمتاشر ...

— ممكن اعرف ليه نمتاشر بالذات ؟

— بعدد الاسرات ! موش احنا من الاسرة نمتاشر ؟ !

وتنفجر ضاحكة وتعاود الفناء مع المطربة ، الامر الذى يركز الابصار علينا .

وفى عين كاهن آمون أرى زغرة شديدة موجهة لصديقتى ، غير مدرك ان المسكينة لا تعدو كونها ضحية بريئة للامبراطورية . غير اننى أرى انه من الافضل للجميع أن أبعداها عن المكان .

— قومى نشم حبة هوا ..

وأستأعدها على النهوض فتنهض وهى تتريح ، ومدندنة متخبطة تتجه معى انى باب الشرفة القريب . والحديقة رطبة مظلمة هادئة ، ليس ثمة صوت سوى صوت صفير صراصير الحقل فى ليل طيبة . وهناك فى الظلام أحاول أن أعثر على ما أسماه السيد امحوتب باللغة العميقة التى لا يعرف تيارها ، وما أظن اننى سأوفق اليها . فأغلب الظن ان هذه السيدة هى نفس السيدة التى صورها الرسام الفرعونى وهى تفرغ مافى

جوفها على الارض قبل أن تلحقها الخادمة بكوز .

ومتنهدا في الاستسلام الفرعوني المناسب اتجه الى
القنساء القريبة لكي انظف جونلتى بشيء من دموع
ايزيس ، على صوت أنين بعيد تحمله الى الرياح ولا بد
انه صوت الفلاح الذى ما يرح يتوجع من علقه الصباغ .

رمسيس .. وبتاور

بالرغم من كل ما صادفنى من المتاعب لايسعنى الا
أن اعترف بأن حياتى مع رمسيس الثانى كانت مسلية
للفاية الى جانب كونها مفيدة وممتعة . خذ مثلاً يوم
قال لى وفى عينه الملكية بظرة مأكرة :

- بنتاور ! « وهذا هو اسمى الذى لا ذنب لى فيه »
حضر نفسك للسفر .

- على فىن يامولاى ؟

- على قادش طبعاً .

وكنيت قد سمعت انه يستعد لمهاجمة الحيثيين انذين
بدأوا يتحرشون بحدود امبراطوريتنا فى آسيا بقبادة
ملكهم الوغد موتالى . ولسكنى ما زلت فى دهشة من
رغبته فى اصطحابى معه وأنا كاتب وشاعر لا خبرة له
بشئون القتال .

- تسافر « هكذا شرح لى » علشان تتفرج على المعركة
وترجع تكتب عنها تقرير ...

- طب ما جلالتك توصفها لى بعد ما ترجع بالسلامة؟

- لا ، لازم تشوفها علشان تنفعل ...

- لكن يامولانا ...

- انكتم !

فانكتمت . وما هى الا أيام حتى وجدتنى جالسا

اتفرز في احدى العربات الحربية ، غير بعيد عن عربة
رمسيس التي تتصدر فرقة آمون . ووراءنا تقع عربات
الفرق الثلاث الاخرى وهي فرق ست ورع وبتاح ،
وقوامها جميعا عشرون ألف جندي من المصريين ومن
مرتزقة البدو والاحباش وأهل سردينيا . ولم تكن في حاجة
الى أكثر من تسعة وعشرين يوما لكي نجد أنفسنا
على مشارف قادش حيث عسكرنا حول العرش الذهبي
الذي يجلس عليه مولانا في البلاطة المناسبة لتلك اللحظة
التاريخية . وجلبة سمعناها عن قرب ثم أقبل عدد من
الجنود يدفعون بدويين مغبزين يزعمان انهما هربا من
جيش مونتالي ، وان المذكور ماكاد يسمع بوصول جيش
فرعون حتى ركب الدرع وولى الادبار بجيشه جهة
الشمال . انباء كست وجه رمسيس بالزهو الشديد
وقد صدقها ، في حين كنت واثقا من انهما جاسوسان
دسا علينا بغية تضليلنا .

— أنا رأيي يامولاي ...

هكذا قلت ، فقال ما هو متوقع :

— انكتم انت !

فانكتمت كعادتي ، وبدأ رمسيس الثاني يصعد
الوامر لفرقة آمون بالزحف الى الشمال لمطاردة الجبان
الهارب مونتالي ، على أن تلحق بنا سائر الفرق فيما
بعد . هذه خطة لم تعجبني بدورها . وكان رأيي ..

— باقول لك انكتم انت !

والى الشمال سرنا حتى نسبنا فعسكرنا مرة أخرى ،
وفك الجنود المتعبون الثيران من عربات المؤن وبدأوا

يستعدون لتناول الغداء ..

— فرقة رع اتأخرت شويه ..

هكذا قال رمسيس وهو يلتفت حوله في قلق ، ذاك
القلق الذي لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا . فما هي
الا لحظات حتى سمعنا ضجة بعيدة أخذت تقترب
شيئا فشيئا ، واذا بالفرقة المذكورة تندفع نحو المعسكر
في حال من الفرقة التامة ووراءها عدد من عربات
الحيثيين تطاردها . فالبديويان كما ترى كانا مجرد
جاسوسين ، وغير بعيد منا كانت ترابط طول الوقت
جيوش الثعلب موكالي . ومجموعة ضخمة من عربات
الاعداء رأيناها تقترب منا لكي تحاصرنا ، قدرتها بما
لا يقل عن ألف عربة تحمل كل منها ثلاثة مقاتلين .

وقعنا في الكمين ورحنا — هكذا قلت لنفسي — في
داهية . ولكن هذا هو الفرق بين استجابة الشاعر
الغليبان للمواقف وبين استجابة مقاتل عظيم مثل
رمسيس . في لحظة واحدة تحول الرجل من رجل الى
أسد مفترس ، وبصرخة مدوية لحرسه الخاص رأيت
يندفع بعربته نحو الاعداء مثل العاصفة ، غير ناس قل
ذلك بالطبع أن يقبل تمثال آمون . ومن المكان المناسب
لشاعر حساس مثلي — وراء صخرة كبيرة — رحت
أرقب مجريات المعركة مذهولا من تلك القسوة التي
ينهاه بها البطل على الحيثيين هو ورجاله القلائل ،
ومصفقاً في فرح صبياني وأنا أرى عرباتهم تنقلب بمن
فيها في النهر الصغير . فلعل تلك الشجاعة الفذة هي
التي أذهلت الاعداء فارتبكوا ، لاسمنا أن أخا موكالي

نفسه ورتبس حرسه كنا بين من سسقطوا فى النهر
بالعربات .

ثلاث ساعات من القتال الوحشى خاضتها فرقة آمون
وحدها أمام جحافل الحيثيين . فى معركة لايعرف إلا
الله الام كنت تنهى أو لم تلمع فجاء عند الأفق أعلام
فرقه تتاح . وبوصول الفرقة وجد الحيثيون أنفسهم
محاصرين من كل الجهات . فبدأوا يرندون . ولم يأت
الليل إلا وفد انسحبوا الى ما وراء الأسوار المنيعه
لمدينة قادش . ودموع غزيرة بللت وجهى فى تلك الليلة
الكئيبة . وسط الاف الجثث للرجال والخيول وأنين
الجرحى بسهم سكون الليل . وناظرا الى الحال المزربة
للجنود تنهدت توطئة لان أقول ارمسيس :

— أتكلم ، والا انكتم ؟

ففتح احدى عينيه المغمضتين من التعب ، وقال :

— اتكلم ...

فتكلمت ولأول مرة أخذ برأى ، ورآنا الصباح ونحن
نسلك طريق العودة الى بلادنا ، متنازلين ولو مؤقنا عن
ذلك الحلم الخاص بفنح قادش . ولم ينس رمسيس
أن يربط الى عربته ما نيسر من الأسرى لىكونوا حين
نصل الى بلادنا برهانا على النصر العظيم .

— موش قلت لك يامولانا ان آمون ح بنصرك ؟

هكذا قال كاهن آمون ، فأجابه رمسيس :

— أيوه فعلا ، ضرورى أبنى له معبد ..

فرمقه الكاهن عاتبا :

— معبد واحد يامولاي ؟

فلم يجبه رمسيس اذ التفت الى قائلا :
- كتبت تقريرك ؟
- ايوه يامولاى ...

ونشرت ورقة البردى ورحت اتلو عليه وصفى للمعركة
حتى وصلت الى الفقرة التى نقول :

- وقد كانت شجاعة جلالته هى التى أنقذت
جيشه ، واستطاع بفرقة آمون وحدها أن ينتصر على
ألف عربية من عربات الحيثيين وذلك بأنه ...

فقاطعنى رمسيس قائلا فى استياء :
- ألف عربية ؟ .. انت بتخرف بتقول ايه ؟ ..

- امال كام يامولاى ؟
- أنا عاددهم ألفين بالراحة !

- خليه ألفين ...
- حتى يمكن اكثر ؟ ..
- نخليه ألفين وخمسمائة ؟

- يادوب !
وتفكر لحظة ، ثم قال :

- وايه حكاية فرقة آمون دى ؟ .. هى الفرقة عمات
حاجة ؟ أنا اللى غلبت الحيثيين لوحدى .. انت ماكنتش
معانا والا ايه ؟

وأصارك القول بأننى اغتظت ..
- تحب جلالتك اكتب انك فتحت قادش كمان ؟ ..
فنظر لى نظرة نصحتنى بأن أنصرف سن فورى لكى
أعد التقرير كما يراه ..

وذلك التقرير نقشوه على عشرات المعابد التى راحوا

يشيدونها في أنحاء البلاد ، من طيبة وأبى سمبل في الجنوب الى تانيس في الشمال . العاصمة الجديدة التي رأى مولاي أن يقيمها في الدلتا . ووسط ضجيج ضربات المعاول أنت الانباء بأن مدينة عسقلان قد تمردت فانطلق رمسيس بجيشه واحتلها ، ثم عرج على مدينة عك فدمرها ..

وكنت مريضا وقتها - أو ممتارضا لا أذكر - فلم يصحبني معه في تلك الحملة ، ولستني سمعت مره أخرى عن شجاعته الفذة التي جعلته يحارب ساعتين كاملتين بدون أن يلبس درعا واقيا . وكان من نتائج تلك الحملة أن أدرك الحيثيون عدم جدوى الحرب ، فوجدتني ذات يوم أقلب لوحا من الفضة أرسلوه إلينا متضمنا نصوص المعاهدة التي طلبوا أن يبرموها معنا حقنا الدماء الطرفين . وعلى سبيل التأكيد للمعاهدة أرسل ملك الحيثيين احدى بناته الى رمسيس ليتزوجها .. يمامة لطيفة رثيت لها حين تتقلب بين أحضان ذلك العريس الذي جاوز الخمسين . وقلت لنفسي ان هذا الزواج سوف يقصف عمره . لكنه لم يفعل ، عاش مليكى العملاق حتى جاوز التسعين متمرغا بين سبع زوجات على رأسهن الملكة نفرتارى ، بخلاف عشرات المحظيات اللاتي تجلجل ضحكانهن في ردهات القصر بتانيس ...

- ما تعمل لنا كشف بيهم يا بنتاؤر ...

- هم ايه يامولاي ؟

- العيال .. موش الواحد يعرف عنده كام عيال ؟

فاحتجت الى أسبوع كامل لكي أحصر الاولاد وأقدم
له الكشف الذي ملأ بردية طولها ستة أقدام ونصف.
بالتمام والكمال يامولانا مائة وحداشر ولد .
وسبعة وخمسين بنت !

فارتسمت على شفتيه أنسامه غرور شديد وكان
كاهن آمون حاضرا . فقال :

— يتربوا في عز مولاي وعز آمون ..
ثم تنحنح وقال كأنما تذكر شيئا :

— وعلى فكرة يا مولانا .. معبد الرامسيوم عايز
يتوسع . ومعبد الكرنك عايز يترمم . ومعبد أبوسمبل
عايز يتبيض !

وكان هذا كلاما أسمعته كل يوم فنعد صبرى :

— معابد . معابد . معابد . . . الفلوس دي موش
خسارة يامولاي ؟
— يعنى ايه ؟

— يعنى أحسن من كده بصرفها في حاجة مفيدة ..
— زى ايه .. ؟

— نشسقى ترعة .. نطهر مصرف .. نبني بيوت
للفلاحين .. نخفف الضرائب .. حاجة زى كده يعنى .
فتفكر في الامر حينما توطئة لان يقول :

— طيب انكتم انت !

وفي تلك اللحظة دخل علينا كبير النحاتين . .

— تمثال الرابسيوم يامولاي .. جلالتك عابزه كام متر؟
فأجابه رمسيس وهو يمط شفته السفلى :

— موش كثير . . . عشرين متر كفاية ..

— ووزنه یامولای ؟
— م . . . م . . . ما تزودوش علی الف طن !

— الف بس یامولای ؟

— آیوه . . اصلی ما احبش الاسراف !

— أمرك یامولای . .

واستدار لينصرف فناده رمسيس :

— وبالنسبة للورد والابهام أوعى تزود عن مس واحد .

و ذات يوم طلب منى أن أعد له كشفا بعدد تماثيله
فصرخت قائلاً :

— أنا ف عرضك یامولای . . دی عملیه عایزه شب
صغیر علشان یقدر یكملها قبل ما یموت !

ثم رأى وقد تقدم به العمر أن يزور طيبة لاسترجاع
شيء من ذكريات الشباب . وبين معابد الأجداد سرناً
تفسح ذات ليلة صافية ، كهلين فانيين يتوكأ الواحد
منا على ذراع الآخر . وعند أحد المعابد توقف رمسيس
ليقول لى بصوت مبحوح :

— شابف المعابد ؟ . . مفيش حد زبى أبدا فى حكاية
المعابد .

فتحنحت وقلت :

— بس لامؤاخذه یامولای . . المعبد ده موش بتاع
جلالتك . . .

— ازای بقى ؟ . . أنا ح انود عن المعابد بتاعتى ؟

— وآمون ماهو بتاعك یامولای . .

— یاراجل ماتقولش الكلام ده . . روح شموه
مکتوب علیه ایه وتعالى قول لى . . . لیکونوا غلظوا

وكتبوا عليه اسم حد غيرى ..

فذهبت وقرأت المکتوب :

— مکتوب ان تحتمس هو اللى بانيه ..

فقل فى انتصار :

— جالك كلامى ؟ باقول لك دايمًا يفلطوا كده !

ولكزنى فى جنبى وقال :

— لكن برضه ملحوقه .. بكره الصبح أقول لهم

يصلحوا غلطتهم !

وحدجنى بنظرة ماكرة واهتز صدره بضحكة مكتومة،

ثم واصلنا تجوالنا بين المعابد لنفتش عن غلطات

الأجداد . وكما ترى — ومهما كان نوع المتعاب التى

صادفتنى — لايمكننى أن أنكر أنها مسلية آخر تسلية ،

حياتى الطويلة الممتعة مع بطل قادش ..

تنبيه!

الى هنا تنتهى سلسلة الدراسات الفرعوية
الضاحكة ، فاذا تصادف أن ضحكت فى الصفحات
التالية فانتبه الى أنك لا تضحك مع الفراعنة وإنما
تضحك مع بعض أحفادهم !

برميل على رأسى !

صورة قديمة لشحى الضعيف عثرت عليها بالمصادفة . وفيها رأيت على رأسى جسما اسطوانيا عاليا قبيح الشكل . وفين وفين لما تبينت انه تلك البدعة القديمة المسماة بالطربوش . فابتسمت وتصعبت وهزرت رأسى أسفا عدة مرات . . ثم ما لبثت أن دهمنتى حسرة اليمة ومرارة دامية !

لو أنهم كانوا قد البسوني هذا الجردل الاحمر المقلوب على سبيل العقوبة لجريمة ارتكبتها لهان الامر . ولكن أبدا . كل الناس كانت تلبس ذلك الطربوش من ملك البلاد الى عربجى الحنطور « لاحظ الفرق الذى كان كبيرا بينهما فى ذلك الزمن البعيد » . أى ان الناس لا يلبسون الطرابيش على سبيل العقوبة أو على سبيل تعذيب النفس ، وانما يلبسونه بصفة لباس الرأس الوطنى الذى يجب أن تفخر بحمسه الفافعة مثل الفوطة ، مثلما تفخر « بزره » الاسود مثل الزفت !

وأنا أيضا كنت أحب طربوشى ، لا للدوافع الوطنية فحسب وانما لما كنت أعتقد من ان ذلك البرميل المقلوب أو قل - قصرية الزرع المقلوبة - يزيد من منظرى جمالا - اذا كان شئ من ذلك ممكنا حقا . فكنت بين يوم وآخر أخذه الى الطرابيشى ليكويه ، يمتعنى

منظره وفد لبس الاسطوانة النحاسية التي على مفاسه .
ووضع الرجل كوبس الكهرباء فبدأ طربوشى يخبز
كالرغيف فى الفرن .

تمر دقيقة واخرى فابدا فى العلق وأقول للرجل :

— والنبي حاسب الطربوش يحرق !

— ما تخافش يابيه !

ولم أكن « بيه » ولا حاجة . ولكنه يعرف انه
سوف يفاضى منى بمنى لتلك الرتبة فرشا زاندا !

والطربوش بالطبع فى مكان أمين — أو فل حصن حصين
— من دولابى . لا اخرجه منه الا اذا كنت أعترم تنظيفه
لزوم الخروج . فأحضر فرشاة ناعمة أمشى بها على
بشرته الحمراء . وفرشاه أقل نعومة أمشى بها على زره
الاسود . دعك من المرذ التي استخدمت فيها المشط اذ
كان الزر معقدا نوعا . سلسلة من العمليات كان جدرا
بها أن نجعلنى أسخسخ من الضحك على نفسى . حمرة
الورد أراها فى الطربوش البنى . وفى زره ارى سواد
عيون حبيبتي . دعك من حكاية انه كما قالوا لى فى
المدرسة جزء من لوازم الوطنية . ناسيين — أو متناسين
وهو الاغلب — أن يحددوا أى وطنييه يعنون .
الوطنية المصرية أم الوطنية التركية ؟ « ملحوظة » :
أعتقد انه فى الوقت الذى أخذت لى فيه هذه الصورة
فى الثلاثينات كان كمال أتاتورك قد أطار الطرابيش عن
رءوس الاتراك جميعا .

وبانتهائى من بجميل الطربوش أتجه الى المرآة لكي
أجرى بعض الجارب التي توحى الى بنسب الاوضاع

الطربوشية لزوم مشوار اليوم . أضعه أول الامر
عموديا على راسي . فما تمضي دقيقة من التطلع الى
نفسى حتى يخيل الى اننى أرى شاربيا ضخما ينمو
رويدا تحب أنفى لزوم ما يحدث تحت طربوش شيخ
الخفر ! فأعوجه بسرعة جهة اليسار مع استخدام
فرشاة الشعر لأصلاح ما أفسد منه الوضع العمودى ،
ولكن هذا المنظر لا يعجبنى أيضا فأميل به - الطربوش
المضحك - جهة اليمين متوخيا أن يصل الى حاجبى
الذى لم يكن قد أصبح فى تلك الايام البعيدة حاجب
السخرية الايمن .

عدة تجارب من هذا النوع حتى أقنع بوحدة منها
« ما نفهمش ازاي » وأخرج الى الطريق غير ناس ان
أسوى الزر بيدى على الدرجة الاخيرة من سلم العمارة .
وفى الطريق أسير سعيدا راضيا فخورا بنفسى وبآلاف
القصارى الحمراء التى تتأرجح على سائر الرؤوس
حولى . شعب - أقول لنفسى - آخر وطنية وآخر
حلاوة !

كان الامر محتاجا لثورة لكى يشعر الانسان المصرى
بسخافة ذلك الشئ الذى يضعه فوق رأسه باسم
الوطنية والقومية ، والذى لم ينجح فى أى وقت
من الاوقات فى ان يقرب صاحبه من أى شئ سوى
البلياتشو ! فالشكر للثورة على هذه اللفتة التى قد
تبدو صغيرة وراء آلاف اللفات والانجازات والانتصارات
الكبيرة .

ومع ذلك هل كانت لفتة صغيرة حقا ؟ أشك فى ذلك

جدا . لقد كانت ضربة في صميم العقائد الكسائية
المزرية ، فلماذا نلبس لباس رأس هجره أصحابه
الأتراك ؟ وهذا اللون الأحمر الفاقع ألا نخجل منه فوق
رءوسنا في تناقضه المضحك مع الزر الأسود ؟ وعلى
العموم ما هذا اللباس الذي تخفى هبة ربح شديدة في
يوم شتوى في أن تطيره عن رأسك وتلقى به في الأوحال؟

والحكاية كما ترى ليست غير ذات مغزى . مغزاها
واضح جدا وهو أن الإنسان قد يعيش كذا سنة وهم
يفعل شيئا « لبس الطربوش هنا » يظن أنه معقول
وواجب وآخر كمال ، ثم تأتي عليه لحظة ثورة تتكشف
له فيها حقيقة الأمر فسرعان ما ينتزع الطربوش من
على رأسه ويلقى به على الأرض توطئة لان يتقافز عليه
— ليحطمه — عدة مرات ، مكتشفا كيف كان يكرهه طول
الوقت ويزدرية ويكرهه وينتظر له على رأى المشـ
« لسكة » !

كانت خدعة كبرى عشناها لسنوات طويلة غير
شاعرين بما فيها من تقبيح لمنظرنا واهانة لكرامتنا
البشر كسائية . فالطربوش هنا يتحول من شيء ملموس
الى شيء رمزى ، وليس بعيدا أن يكون فوق رأسى أو
رأسك طربوش مجازى لا تراه العيون ولكنه يكبس
على يافوخ صاحبه بكل ما كان يكبس به الطربوش
الأصلى فيما سلف .

بأعلى صوتى أقول : يسقط الطربوش ، يسقط ،
يسقط ! صحيح أن فئة الطرابيشية لابد أن تكون قد
أضرت بعض الشيء ، لكننى أعتقد أنها لابد كانت قد

دبرت أمرها « لاحظ الفرش الصاغ بمن ربه البكوية »
كما أظن ان حكومة الثورة قد عملت على تعويضها
بصورة ما .

وبالرغم من كل هذه الكراهية المناصلة في نفسي
للطربوش فهناك سؤال صغير لا يبرح يلح على بين حين
 وآخر . أليس غريبا اننا الشعب الوحيد الذي نبذ
لباس رأسه ونسى أن يلتصق لها لباسا آخر ؟ !

حكاية عشوة !

أحد أصدقائي بروى لى - والدموع تكاد تطفر من عينيهِ - كيف سولت له نفسه أن يستقبل العام الجديد بسهرة فاخرة تعوضه هو وزوجته عن كافة السهرات التى لم يسهرها طوال العام المنصرم . واختارا أحد الملاهى الراقية وكان ثمن التذكرة سبعة جنيهات للفرد الواحد ولكن خليها على الله . لاشك أنهما فى مقابل ١٤ جنيهًا سوف يأكلان أكلة تملأ بطنيهما طول السنة ، أو على الأقل طول شهر يناير الذى سيقضيانه وهما لا يطيقان النظر الى جنس ضائى أو بتلو أو فراخ أو حمام أو حتى ديوك رومى .

فأخذ صديقى - لزوم توسيع البطن - شربة زيت و كربونات سودا ، وأخذت الزوجة سترات وبانتوزيم . وخلع هو الحزام مستبدلاً به حمالة ، فى حين لبست هى الفستان بلا كورسيه مخافة أن يضط على معدتها فنقوم وهى لم تأكل بعد إلا بخمسة جنيهات .

- نبتدى العشا ؟

هكذا رن سؤال الجرسون فى اذن صديقى وهو ينحنى أمامه بأدب ، فأجابه بقدر من الإلاطة يناسب الموقف :

- م م مافيش مانع !

وبدا العشاء - يحكى صديقى - بصحن فى حجم
صحون الشاى يحتوى على أربعة أشياء صغيرة تشبه
الجاتوه .

- جاتوه قبل العشا ؟ !

تساءلت زوجة صديقى فى دهشة :

- هس !.. ما تظهريش جهلك ! الاكل الهاى أصوله

كده !..

وضرب الشوكة فى قطعة الجاتوه ودسها فى فمه
لكى يتبين انها ليست جاتوه ، والا فلماذا هى محشوة
بالبسلة ؟ فهو نوع من الحرفنة المطبخية فى علاج الخضار
المسلوق . فبينما هو يميل على زوجته هامسا لها برأيه
فى الموضوع اذ امتدت يد الجرسون لتنزع الصحن من
أمامه وهو لم يأكل سوى القطعة الواحدة . ذلك
بالطبع لكى يضع بدلا منها صحنا آخر يحتوى على قشرة
باذنجان مفرغة ومحشوة بما يوازى خمسة جرامات من
السّمك ، وصحن ثالث يحتوى على شوربة قرأ صديقى
فى القائمة انها شوربة سلحفاة . لكنه مال الى الاعتقاد
- بعد التذوق - انها شوربة بوارنيوم !

فقال لزوجته :

- موش ممكن تكون شوربة زحالف ، معقول زحلفة
ترضى تشرب الشوربة دى ؟

ولسبب ما لم يتعجل الجرسون رفع هذا الصحن
من أمام صديقى . فلما رفعه وضع بدلا منه صحنا فيه
شئ تبين صديقى - بعد أن مسح نظارته - انه حبة
لحمة ، تلك الحبة التى ما كاد يشرع فى مضغها حتى

قال لزوجته :

— تفكرى عيب انده الجرسون يضيفها لى ؟ !

وقبل أن تجيب السيدة كان الجرسون قد رفع الصحن ليضع بدلاً منه صحنًا يحتوى على حبة نسيرة من الديك طولها بوصة وعرضها نصف بوصة ، لو أن الإنسان أكل مثلها في وجباته الخاصة لأمكنه أن يحتفظ بالديك في الشلاجة ستة أشهر . والنسيرة مثل حبة اللحم .. يقول صديقى : توحى بأنها منزوعة من الديك الذى استهل به عمر الخيام رباعياته الشهيرة !

ثم فوجئ صديقى بصحن من البرتقال والموز يوضع أمامه ، فهتف فى رعب :

— العشا خلص ؟ !

فضحكت زوجته وضربته على ظهره مداعبة :

— أما انت بقى ! دى زى الجانوه يا عبيط !

— يعنى ايه ؟

— يعنى لازم شكله موز لكن محشى لحمة !

وقشرت الموزة وقضمت منها فبدت خيبة الامل على

وجهها ! سألتها :

— لقتيها ايه ؟

قالت بحسرة :

— لقيتها موزة ! ..

فأشار الى البرتقال قائلاً :

— جربى دى !

فقشرت الزوجة البرتقالة وتعمقت فى تقشيرها ، وما من شيء يتكشف تحت القشور سوى فصوص

البرتقال . وبنظرة تفاهم طويلة صامتة قال الزوج :

— قومي نروح !

— ليه ؟ ..

— كده ..

— عاوز تنام ؟ ..

— لا ، عاوز أتعشى !

عبقريّة النوم

بعض الناس لا تلزمهم طبيعة عملهم بالتواجد في العمل في ساعة مبكرة من الصباح ، ومن ثم ففي وسعهم أن يناموا حتى التاسعة أو العاشرة أو حتى الظهر إذا شاءوا . انى لأعرف أشخاصا من هذا النوع - أشخاص أذكاء وموهوبون وناجحون - يستغلون هذه الرخصة الى آخر حدودها ، من المستحيل أن تضرب تليفونا للواحد منهم قبل الظهر الا ويقال لك انه نائم ..

الموظفون العاديون والعمال يكونون قد أنهوا ساعتين أو أكثر من العمل وهؤلاء نائمون . التلاميذ قد انتظموا في الحصّة الثالثة وهم نائمون . قطار الصعيد قد وصل الى مشارف أسوط وهم نائمون . الناس قد شاهدت نصف الفيلم في الحفلة الصباحية وهم نائمون . آلاف الكلاسات تتشاتم في ميدان التحرير وهم نائمون . نساء وضعن ورجال ماتوا في العمارات المجاورة وهم نائمون .

كواحد من أولئك الذين لا تربطهم بالعمل ساعة معينة كان يمكننى ان استغل هذه الرخصة بدورى الى آخر احتمالاتها ، لكننى للأسف الشديد أعجز عجزا تاما عن استغلالها . هذه القدرة على النوم الطويل تحتاج

فيما يبدو الى نوع من الموهبة - وربما من العبقرية -
م انجح في التوصل اليه في أى يوم من الابرار ..

ما أن يسئل من شيش النساغة أول شعاع من
الضوء حتى تفتح عيناى من نفسها . وشعور جارف
باننى يجب أن أستيفظ من فورى . كتمبذ بخشى أن
يصل الى المدرسة بعد الجرس أو مسافر بخشى أن
نفونه القطار . أقول لنفسى اننى غير مرتبط بشيء من
ذلك ولكن صونا فى داخلى يقول لى فى صبر نافذ :

- بلاش دوشة .. ح تصحى يعنى ح تصحى !

- ليه بس ياسيدى ؟ ..

- أهه كده !

- طيب سيبنى انام لى ساعة ..

- موش ممكن !

- طب نص ساعة ..

- مستحيل !

- موش بس تفهمنى ليه ؟

- انت موش عارف النهاردة ايه ؟

- ايه ؟ ..

- النهاردة التلات ..

- طب وايه يعنى ؟

- موش عارف عليك ايه يوم التلات ؟ !

وانا أعرف بعقلى الواعى انه ليس على أى شيء فى
يوم الثلاثاء ولا الاربعاء ولا أى يوم آخر - على الاقل
فى تلك الساعة المبكرة - ولكن ذلك الصوت الوغد
يتوجه بالانذار الى عقلى الباطن نصف المخدر من أثر

النوم ، فيملؤه احساسا بأن ثمة خطرا رهيبا يتهددني
في هذا اليوم اذا أنا لم أصبح من فوري . أو أن ثمة
غلطة رهيبة في حياتي يجب أن أهرب لمعالجتها قبل أن
تستفحل ونخرب بيتي . وهذا ما يسمونه بالانذار
الكاذب الذي يصدفه القلب الساذج فبشئ وجيبه .
مع تلاحق في الانفاس وقد انخدع الحجاب الحاجز
بدوره بهذا الخطر الوهمي . ولقد اتعمد تجاهل هذه
الاصوات وارغم نفسي على معاودة النوم فأتعرض لحملة
من الكوابيس الرهيبة المتوالية ، بين ثعبان فظيع
يريد أن يقرصني . أو أسد هارب من الحديقة يريد أن
يأكلني ، أو مأمور ضرائب يريد مناقشتي !

لا فائدة اذن من المقاومة . كتبت على اليقظة بالرغم
من ان الساعة لم تتجاوز السادسة وجميع من في
البيت نيام . كل الابواب مغلقة على النوم اللذيذ والاحلام
السعيدة . وأنا وحدي في البست مثل عفاف راضى .
أتنحنع وأسعل عسى أن أنبه أحد النائمين وما من أحد
ينتبه ، أمامي ساعتان كاملتان على الاقل لا أنطق فيهما
بكلمة : بهم ..

لو انه في امكاني أن أحصل على جرائد الصباح لهار
الامر . ولكن الجرائد لا تصل الى حيث أقيم بالهرم
الا بعد الثامنة . ومن ثم لا أجد أمامي سوى الراديو
الذي أفتحه - بشويش لكى لا أقلق النائمين السعداء
- على صوت مذياع يتلو على بعض عناوين الصحف ،
وهو صوت بعزيني - بما فيه من دلالة - على ان هناك
شخصا غيرى قد صحا مبكرا . ولكن العناوين نفسها

لا تريحني كثيرا ، بما تتضمنه في معظم الاحيان من
اخبار الدسائس والمذابح والانفجارات والفيضانات التي
تحدث على سطح هذا الكوكب النعس .

ثم اغنية مليئة بالحماسة التي لا تطيقها النفس نصف
البقظي . او مليئة بالعواطف الجامحة التي تتنافى هي
الاخرى مع مزاج الصباح . او اغنية عمرها ثلاثون عاما
تملأ نفسي باحساس من الفشل التام فأنشاءب وأففل
الراديو . والساعة لم تتجاوز السابعة بعد . وابواب
الحجرات ما زالت موصدة ، مثل نوافذ البيوت المجاورة
التي أوشك أن اسمع غطيط النائمين السعداء وراءها .



ملل رهيب أحاول أحيانا أن أقطعه بالنداء على
القطعة ، أبسبس لها فتأتي مسرعة تقول : نو . تشب
على مؤخرتيها وتمد لي رأسها وقد ظنت أن عندي شيئا
يؤكل ، وباكتشافها أنني لا أطلب منها سوى المجالسة
ترتسم في عينيها الخضراوين خيبة أمل شديدة وتراجع
نحو الباب الذي دخلت منه . وقبل أن تخرج يلتفت
نحوي وفي عينيها زغرة تقول لي :

— لما عندكش اكل .. متنيل صاحي بدرى ليه ؟

ومن شدة الملل يخطر لي في بعض الاحيان أن ألبس
هدومي وأخرج ، ولكن الى اين اذهب ؟ هل اتجه
الى دار الهلال واجلس على بابها حتى تفتح ؟ ! ولقد
عملتها مرة وخرجت فوجدت أن المقاهي كلها لم تفتح
بعد ، وليس ثمة في ميدان الجيزة سوى العربات المحملة
بالخضروات تفرغ شحناتها — هي والحمير التي تجرها !

والآف من الناس يطاردون الأوتوبيسات لكي لا يفوتهم موعد العمل ، وداخل الأوتوبيسات قد انفجرت المئات من بنات المدارس اللوانى يجب ان يصلن فى الثامنة . ذلك المنظر الذى لا يمكن ان يرنح اليه رجل يركب سيارته الخاصة . فاشترى ساندونش طعامية وجلس أكله على كورنيش النيل . وبحثت عن رجالة كازوزة أبله بها فتبين لى ان موزع الكازوزة ليس من الناس الذين يصحون بدرى .



محنة صباحية أعانيها يوما بعد يوم . وسط غطيط العشرات من عباقرة النوم العاشرة . فخطر لى يوما ان أسهر الى الفجر حتى أضمن نومة ثقيلة للتاسعة ولكن أبدا . ما ان تسلل الى الحجره اول خيوط الضوء حتى رن فى أذنى ذلك الصوت الوغد يقول :

— انت عارف النهاردة ايه ؟ ! ودارت بيننا نفس المحاوره المزعجة التى انتهت بطيران نومى مثل كل يوم فما رأيك انت فى هذه المشكلة المحيرة .. تنصحنى أجرب أبو النوم ؟ !

الباب المفتوح ..

ليس غريبا ان يفاجئ الرجل بتلف يصيب اكرة باب
سيارته . وليس غريبا ان يفاجئ بتلف يصيب اكرنين .
لكنه من الغريب جدا ان يفاجئ بتلف جميع الاكر في وقت
واحد . وكأن هناك ميكروبا معيننا تفشى في السيارة بشكل
وبائى . كميكروب الحصبة الذى ما يكاد يصيب طفلا
حتى ينتقل الى كافة عيال الحارة .

من هذا الوباء تعانى سيارتى « فورد ٥١ » ونبىنى
كمان « فى هذه الايام . لاسيما اكرة الباب الذى يقع
عن يسارى مباشرة وأنا أسوق . أرزعه بكل قوتى لكى
يقفل فلا يقفل ، يظل ملخلخا يتراقص تحت ذراعى
التى استند بها عليه . طول الوقت - وأنا سائق -
أفتححه وأرزعه بدون أن أظفر بأية نتيجة مثمرة . وفى
النهاية أياس منه وأروض نفسى على احتمال رعشسته
وصوته المزعج ، أتركه يتلخلخ وتخبط ماشاء له الخبط
واللخلخة ، والياس كما قيل قديما احدى الراحتين .
أنا يئست وارتحت لكن الناس للأسف لايأسون ،
ويرفضون أن يتركونى فى حالى لكى أستمتع براحتى ،
اذ اكون سائقا فأسمع كلاكسا شديدا ورأى مع ان
الطريق واسع يتسع لعشرين سيارة . فأخذ بمينى
وأشير للسائق بأن يمر فلا يمر ، بل يهدىء من سرعته

حتى يحاذيني بسيارته وهو يصرخ في فائلا : بابك مفتوح ! فأرفع يدي الى جبیني بتحیة الشكر المناسبة لهذا المنقد الكريم . مع ابتسامة امتنان عريضة .

توطئة لان أفتح الباب وأزرعه بقوة . . أنا أعرف بالطبع انه لا فائدة من ذلك . لكنني أفعل ذلك لكي أربح منقدي . . لا شك انها تكون فسوة مني لو انني سمعت نصيحته ثم أمسكت عن اتباعها . كأنني أقول له انت مالك أو شيئا من هذا القبيل .

طول ما انا ماشي أسمع تلك الصرخة التحقيرة . بابك مفتوح ! فأرفع يدي بالتحية وأبتسم . ثم أفتح الباب وأزرعه . بابك مفتوح ! فأرفع يدي بالتحية وأبتسم ، ثم أفتح الباب وأزرعه . هي بغير شك ظاهرة تدل على مدى العواطف النبيلة التي يحتفظ بها الانسان لآخيه الانسان ، ولكنني بصراحة بدأت أزهد ، من ناحية بدأت ذراعي توجعني من كثرة الفتح والزرع . ومن ناحية أخرى لماذا يفترض الناس انني مسطوول لا أشعر بن بابي مفتوح ؟ فإذا افترضنا انني لا أشعر فلماذا كل هذا القلق بسبب ان بابي مفتوح ؟ هو أولا ملخلع فحسب وليس مفتوحا . فما سبب ذلك التشاؤم الذي يؤكد للناس انه مفتوح ؟ وحتى لو سلمنا بأنه مفتوح - أو انه قد يفتح في أية لحظة - فايه يعني ؟ كيف يتاح لي أن أسقط من السيارة وأنا قابض على الديركسيون بكلتا يدي ؟ هل من المعقول - بمجرد أن يفتح الباب - أن ينخلع الديركسيون بدوره فأجد نفسي جالسا على قارعة الطريق وأنا أمسك دركسيونا بلا عريية ؟ !

ولقد وقع لى - بسبب هذه الحكاية - فصل مزعج
جدا ، اذ مرت بى سياره مليئة بالاناث فاذا بهن جميعا
يبتسمن لى ويلوحن بالايدي الناعمة . الامر الذى
جعلنى ارفع يدي الى الكرافته لكى اعدلها ثم اى
شعرى لى أسويه . متوهما اننى قد فتنتهن بجمالى
أو ابهن قد قرأن التفاحه والجمجمة ولذلك يبتسمن
من فضلهن . ثم انضح لى انه لا هذا ولا ذاك . عندما
افتربت سيارتهن منى انبعث صوت حريمى يقول لى :
- بابك مفتوح !

لم يكن يخطر لى قط ان بابى مهم الى هذه الدرجة ،
وان حياتى غالية على سكان الجمهورية بهذه الصورة
السارة والمزعجة فى الوقت نفسه .

لذلك اجد نفسى فى حاجة الى مشوره عاجلة بصدد
اللوحة التى أنتوى تعليقها على باب سيارتى ، لوحه
صغيرة عندى فكرة عامة عن مضمونها لكننى أريد أن
أخذ رابك فى الكلمات التى أعبر بها عن هذا
المضمون . فاليك عددا من الصيغ التى أرجو أن
تساعدنى فى اختيار واحدة منها :

- ١ - بابى مفتوح وأنا أعرف ذلك فشكرا .
- ٢ - بابى مفتوح وجارى تصليحه باذن الله .
- ٣ - بابى مفتوح لكننى أمسك الدركسيون فلا تخف
- ٤ - بابى مفتوح ، ايه حشرك انت يا بارد ؟

تلك بعض الصيغ التى خطرت لى ، ولا مانع من أن
تقترح على غيرها اذا خطر لك شيء ، وأرجو ألا أسمعك
تنصحنى باصلاح الباب ، فأنا لا أميل الى هذا اللون من
الاغراب فى التفكير .

أحلام مراهقة

من بلكونة الفندق حيث جلست وجدتني أرقبه
حيث يجلس في بلكونته الخاصة غير بعيد ولا قريب
منى ، المراهق المصرى الذى أرجو أن يكون قد نجح فى
الثانوية العامة بمجموع مناسب للدخول الجامعة .
اسمر الوجه رقيق القسمات حالم النظرات ، سرح
ببصره فى البحر الأزرق العريض وراح يحلم .

بالمستقبل يحلم بالطبع ، وباليوم الذى يحصل فيه
على تلك الورقة السحرية المسماة بالميسانس ،
ومانشيت فى الصحف عن تعيين جميع الخريجين هذا
العام وهو منهم . الدرجة السادسة الفنية يا حبيبى ،
واسرح معه بخيالك فى كل تلك الأشياء الجميلة التى
يستطيع الإنسان أن يفعلها بخمسة عشر جنيها فى
الشهر . السينما مرتان فى الأسبوع بدلا من مرة كل
أسبوعين ، والجلوس فى البلكون بدلا من الصالة ،
وشرب زجاجة الكازوزة على مقعد السينما بدلا من
الخروج لشربها على رصيف الشارع . فاذا أتى وقت
الكساء فحذاء من الجلد بدلا من حذاء من المشمع ،
وبنطلون ترجال بدلا من البنطلون الفانلة . أى والله
يا أخى ، ما أكثر ما يمكن للإنسان أن يفعله بخمسة عشر
جنيها فى الشهر .

وعلى رصيف الشارع تحت بلكونة الفتى الحالم مرت فتاة حلوة ، حمالات المايوه تكشف عن كتفها وبعض صدرها . والنصف الاسفل ملفوف في بنطلون احمر ضيق ، وهواء البحر يطير على جبينها الوضاء خصلان من الشعر الحرير . متهادية سعيدة بنفسها لفتت نظر الفتى كما افتت نظري . فتركز بصره عليها ونهض من جلسته ليطل عليها . متابعا اياها وهي تتعد مولية اياه خلفية لا تقل جمالا عن اماميتها . ولعن الله ذلك اللورى الضخم الذى حجبها عن الانظار .

فارتد الفتى الى حال الجلوس وواصل الحملقة الى البحر ، واضعا يده على خده فى نوع من الحسرة التى ربما بررتها ظروف المراهقة . فأحلامه فى هذه اللحظة قد اتخذت مجرى مختلفا بعض الشيء عن الليسانس والدرجة السادسة ، وما أحسبها الا وقد تركزت حول الامكانيات الرائعة التى تكمن فى ثنايا الكيان الجميل الذى فات . تلك الامكانيات التى أرى - لاعتبارات قانونية بحثة - أن اتركها لخيالك الخاص .

غير انه هنا - يقول الفتى الحالم لنفسه - تبدو أهمية الدرجة السادسة مرة أخرى ، فأى شيء أسهل من أن يعود الى الجلوس فى الصالة بدلا من البلكون ويتزوج ؟ . لانه لاشك سوف يلتقى ذات يوم ببنت حلوة مثل هذه البنت ، وسوف يشتعل الحب بينهما حتى من قبل أن يتم ربطه على السادسة .

- تحبينى يا مرفت ؟

- قوى يا فريد ..

— انت الامل اللى طول عمرى عايش بيه ..

— وانت الحلم اللى طول عمرى باستناه ..

« معذرة عن مستوى الحوار ولكن شيئاً في منظر ذلك الفسى يوحى الى بأنه يكتر من الفرجة على الاولام العربى » .

— مرفت ..

— ايه يا فريد ؟

— ترضى تتجوزينى ؟

— ياسلام يا فريد . ده يبقى يوم منايا ...

— حبيبتي مرفت ..

— روحى فريد ..

كلوز أب على حزن وحشى وقبلة ملتهبة تنتظر مقص السيدة اعتدال ممتاز . ثم قطع على الدفوف وهى تفرغ بيدي العوالم فى ليلة الزفاف . وما دمنا قد وصلنا الى ليلة الزفاف فمرة أخرى أحيل الامر ولنفس الاسباب الى خيالك الخاص .

نعم يكفيهما ويفيض ذلك المبلغ . من الذى يحتاج مع القطعة مرفت الى أكثر من خمسة عشر جنيها ؟ انها لن ترفض بالطبع « وقد حققت أمل عمرها بالزواج منه » ان تقيم فى شقة حجرة واحدة ، بحاجه كده زى خمسة ستة جنيه . فعندما يوجد الحب الحقيقى تتضاءل أهمية المكان الذى يمارسه فيه الحبيبان ، وخير دليل على ذلك قول شادية لحبيبها انها تريد أن تحب فى أى مكان ، صحراء كان أو بستانا ، وذلك بالرغم من رمال الصحراء التى سوف تتسرب الى فستانها

أو من حشائش البستان التي سوف نشوكها . صحيح
أن هناك بعض الشائعات عن خلاف دب بين شادية
وزوجها ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، فهو واثق
بأن مرفت تختلف عن شادية كما أنه هو يختلف عن
صلاح ذو الفقار ، وأغلب الظن أن هذا الخلاف ما دب إلا
لأن صلاح ليس في الدرجة السادسة .

أما من الناحية الغذائية فقد ثبت من زمان أن الطعام
هو آخر ما يفكر فيه الحبيبان المخلصان . نعم هما
يحتاجان إلى ما يقيم أودهما ولكن هذا لا يهدف إلا
لشيء واحد إلا يعجزا من فرط الجوع عن ممارسة
الحب . ومن ثم فهما يأكلان أى شيء يتاح لهما حتى
ولو كان صحن فول مدمس ، وليس يشك - الفتى
الحالم - في أن شفتى مرفت ستكونان آخر متعة وهما
غارقتان بالزيت والليمون ، حتى ولو كانت قد أكلت مع
الفول بصلصة ، عمر البصل ما كان يتعارض مع الحب
الصادق .

فمع هذا الحب لا تدقق الأنثى بشدة في أنواع
الطعام ، وعندك صباح التي رضيت بأن تعيش على
البطاطة ما دامت تعيش مع الرجل الذي أحبه . شأنها
شأن المطربة الأخرى التي تقول لحبيبها أعيش معك
وأكلها بدقة !

ولا شك أن مرفت سوف تكون في منتهى السعادة
وهي تأكل البطاطة بصحبته ، لاسيما إذا قشر لها
البطاطاية وأطعمها إياها بيده . كلا ، ليست مرفت التي
تفكر في الأكل وهي معه . حسبها إذا جاعت أن يقبلها

فتشبع ، أو يحتضنها حتى تتجشأ من فرط التخممة .

وبالنسبة لبنود الصرف الأخرى لا يظن فتانا أن فانورة الكهرباء سوف تكون بندا في ميزانيتها . فمن الحمار الذى يضيء النور وهو مع الامورة مرفت ؟ ! ليس هناك قمر يملأ الكون بنوره الشاعرى ؟ وما أبغض مصابيح الكهرباء العادية عند مقارنتها بشمعدان شاعرى لطيف يلقي على جدران الحجرة خيالات راقصة لهما وهما يتبادلان القبلات وبأكلان حبات الترمس .

وكذلك الحال بالنسبة لبند الملابس الذى لا يظن فتانا انها ستمثل عنصرا هاما في حياتهما . ما فائدة الملابس بالنسبة لعاشقين سعيدين بنامان ويقومان - كما تقول شادية - ويقومان وينامان على حب جديد . ولا شك ان الملابس ستكون عائقا دون تحقيق ما دما اليه عبد الحلم حافظ من حالة الحب التى يختلط فيها الامر على المحبين فلا يعرف الواحد منهما دقة قلبه من دقة قلب الآخر .



وانشى جديدة مرت تترجرج تحت بلكونة الفنى فنهض كما نهض من قبل ، وتابعها حتى اختفت كسابقتها . ثم جلس الفتى حينما تم وقف ، ثم وقف متمللا وقد تجسد له فيما يبدو بعد المسافة بينه وبين الدرجة السادسة وما تبشر به من أحلام . فوقف من جديد ودخل الى حجراته وأغلق زجاج الحجرة بالرغم من ان الدنيا حر . ولعل هذا هو السبب فى انه تردد

وراء الزجاج المغلق لحظة ثم فتحه وأغلق الشيش .
وذكرني ذات يوم أن أكتب قصة أو بحثا عن حياة
المراهق المصرى وار كان من الصعب ان نستخرج من
وسط تلك الاحلام المحمومة حنا والحزينة حينا آخر
قصة فكاهية .

شقاوة عيال

هم كائنات سافلة منحطة متأخرة - العيال طبعا -
الا انهم في بعض الاحيان يشكلون عنصرا لا بأس به من
عناصر التسلية .. من ذلك ما شهدته منذ أيام في بيت
أحد أقاربي . اذ وقف على سجادة الصلاة يصلى
فدخلت طفلة الصغيرة ووقفت ترقب المشهد في صمت
واهتمام . ولكن صمت الاطفال كما تعلم لا يطول ،
وسرعان ما اقتربت البنت من قريبى المصلى وقالت له
مستفسرة :

- بابا .. انت بتصلى ؟ !

ولانه كان يصلى فلم يجبها طبعا ، مكتفيا بزغرة صغيرة
منذرة بجانب عينه وهو يواصل التمتمة ، تلك الزغرة
التي لم يبد ان البنب فهمت معناها ، والتي لم يكن
لها من نتيجة سوى اشغال المزيد من الفضول في نفسها
البريئة . فاقتربت منه حيث وقف على السجادة وبدأت
تشده من طرف جاكته البيجامة :

- بابا .. بابا .. انت بتصلى يا بابا ؟ !

فرفع الرجل صوته بالتلاوة لكي تفهم البلهاء انه
يصلى وليكنها لم تفهم . أو فهمت وليكنها - كواحدة
من هذا الجيل المتشكك - لا تقنع بغير الجواب القاطع
الصريح . وكانت فرصتها في التمكن منه عندما جلس

يقرأ التحيات ، اذ صار في نفس ارتفاعها فوضعت قمها
على أذنه وعادت تقول :

— انت بتصلي يا بابا ؟

ولا صراره على عدم الإجابة تأكدت البنت انه قد
أصيب بطرش مفاجيء فبدأت تصرخ بأعلى صوتها في
أذنه :

— بابا ! بابا ! انت بتصلي يا بابا ؟ !

وكانت الدماء لا تبرح تتجمع بكميات ملحوظة في وجه
الرجل الصابر ، الذي يتصاعد غيظه شيئاً فشيئاً
بالإضافة الى الآلام السمعية التي سببها له صراخ
البنت في أذنه . وانتهى أخيراً من الصلاة فصرخ بصوت
أعلى من صوتها :

— آمال باعمل ايه يا بنت الـ . . ؟ ! بالعب ؟
بارقص ؟ واحد واقف يصلي يبقى بيعمل ايه يا حمارة
يا غبية يا قليلة الادب !

ثم التفت نحوى وفي عينه زغرة خاصة بى انا وقال :
— وسيادتك قاعد نتفرج ؟ موش تحوشها عنى
وتفهمها انى باصلى ؟

فتفكرت فى الامر توطئة لان اقول :

— والله خطر لى أحوشها عنك وغيرت فكرى . .
موش يمكن لك عادة تعمل نفسك بتصلى وتكون
ما بتصلش ؟

ولكنه لم يبد من أمره انه اقتنع ، فأنت تعرف ان
بعض الناس لا يقتنعون بسهولة .

العقل ضد الهرمونات

لا شك انه منظر جميل . منظر أسراب الطالبات وهن واقفات على محطات الترام والترولى ، محتضنات حقائبهن الى صدورهن بذلك الشكل الرمزي الفاتن . وكذلك الجمال مع منظرهن حيث تكدسن فى عربات المدارس . خصوصا عندما يبتسمن لى من نافذة السيارة الخلفية وأنا وراءهن فى الفورڊ ٥١ نيتى ..

هو منظر جميل يفتننى ، مثلما يفتننى منظر أسراب العاملات ، صناعيات كن أم تجاريات . شأنه شأن منظر السنات الفلاحات وهن بجمعن القطن أو ينقن الدودة . منظر يفتننى وان كان فى الوقت نفسه - صدق أو لا تصدق - يفرعنى أكثر .

نعم بفرعنى . عندما اخبل ملايين الاجنسة التى ستحول يوما الى عبال بقول واء ، توطئة لان تقول مم . وتنزل على خيرات البلد كما ينزل سرب من الجراد فى حقل ذرة ..

ملايين هنا تتحول الى بلايين وبلايين عبر خمس قارات مؤسسة أنشوية رهبة لتفريخ الاجنسة وتوريد الجراد والذنب بالطمع ليس ذنب البويضة . فالبويضة لاتستطيع ان تكون الا بويضة ، ولا يمكن أن يكون لها هدف فى الحياة سوى أن تتحول الى جنين . والذنب ليس ذنب

الانثى أيضا ، فهي الاخرى لا يسمعها أن تكون الا انثى .

انما الذنب هو ذنب الحكومات التى تدير شئون الدول
فى مختلف القارات . اذ تتناول بالتنظيم كافة مجالات
النشاط البشرى ثم تحجم عن التدخل بالتنظيم فى هذا
المجال بالذات مع انه فى نظرى اخطر المجالات كلها .

نعم هو اخطر المجالات ، فمن أين نشأت متاعب
الناس الا من كونهم أكثر من اللازم ! الحروب تقوم لان
الناس أكثر من الطعام . والمجاعات تحدث لنفس
السبب . والابوثة تنفشى لان الناس أكثر من الرعاية
الصحية .

لو كان عددنا قليلا لما كان هناك حرب ولا جوع ولا
فقر ولا مرض . فالذى يريد اليوم أن يسدى أجل
خدمة الى البشرية هو الذى يخلبها نائمة ويخنق نصف
افرادها ! وبما أن هذه خطة متعذرة نوعا لكثير من
الاعتبارات . فلا يبقى أمام الانسان الا أن يصنع أضعف
الايمان بأن يحاول انقاذ الاجيال القادمة من الورطة التى
وجد نفسه فيها بسبب انقياده لغباء تلك الكائنات
الجهنمية المسماة بالبويضات .

ان العقل هو الاداة التى ركبت فىنا لكي نرب
أمورنا ، فلماذا نستخدمه فى ترتيب كل أمورنا ما عدا
مسألة تكاثرنا ؟

انا شخصا انسان عاقل . ولذلك أنجبت ثلاثة أولاد
فقط ، ولو شئقونى لما أنجبت الرابع . فلو اننى كنت
أعقل لاكتفيت باثنين ، ولو كنت أعقل لاكتفيت بواحد ،
وربما كنت أعقل لو لم أنجب أى طفل ، وأين هو

العقل الذى كان نه أن يمنعنى من الزواج أصلا ؟

وهناك كثيرون من العملاء مثلى . ولكنهم بالقياس الى الاغلبية الساحقة قلّة لا يعتد بها . الاغلبية من الأزواج لا وظيفة لهم سوى نلبسة أوامر البويضات والتفرغ لخدمتها . . هورمون ينسعث من المبيض وبسرى فى دمائها الى رأسها حيث تتراءى فى عينيها نظرة دلّع . فسرعان ما يضرب الزوج تعظيم سلام ! كالجرادل يطب فى الشرك الذى رسمه له هورمون سخيّف لا يسوى ثلاثة ابيض !

بلايين الجرادل فى خمس قارات . وبلايين نظرات الدلّع التى تتحول الى بلايين الاطفال الذين يقولون واء نوطئه لان يقولوا مم . والنتيجة انه مهما تقدم العلم فسوف تظل المشكلة قائمة ، ولن تزال هناك حروب ومجاعات وفقر ومرض . مهما استصلحنا من الصحارى ومهما صنعنا المزارع . ومهما أقمنا من سدود وجسور ومحطات كهرباء . فلن نبرح سرعة أثر الهرمونات اكبر من سرعتنا ان لم نمدخل فى الامر بعمل حازم .

لكن الحكومات لا تتدخل بأى عمل حازم . كل ما تصنعه هو أن تقول لهم : يا جماعة موش كده . على مهلكم شوية ! لكن تقول لمين ! كيف تفهم جردلا ان نظرة دلّع فى عين أنشى لا تستحق أن تجعله يظلم البشرية بجرادة زائدة !

ان هذا يرجع فى الغالب الى سوء فهم للحربة الشخصية . ما دام الرجل قد كتب مع أنشاه كونتراتو فهو حر فيما يصنع ما دام باب الحجرة مغلقا ! قبلة

عابرة في الطريق بين شساب وفتاة قد تقودهما الى
التخشيبية . أما ضجعة في حجرة الزوجية تؤدي الى
الطفل العاشر فهذا شيء يدخل في نطاق الحرية الشخصية !
كان وثيقة الزواج هي في الوقت نفسه ترخيص للزوح
بتدمير اقتصاديات البلد !

حقا ان هناك محاولات للتوعية هنا وهناك . لكن
توعى مين ؟ المسألة محتاجة الى شيء أهم من التوعية .
محتاجة الى ذلك السيف المسمى بالقانون . وهو يجب
ان يكون قانونا دوليا لا محليا . قانونا عالميا ينص عليه
في وثيقة حقوق الانسان . من حق الانسان ان يتعاون
على مستوى دولي في حماية نفسه من كيد الهورمونات

وحيث اننى أحمل لبسانس الحقوق فأعتقد انه يجب
ان أضرم الى اللجنة التي تضع ذلك القانون . فاذا لم
ينسبر ذلك ، بسبب المؤامرات الامريكية في اروقة الامم
المسحدة ، فحسبى ان اقدم لهم فكرة سريعة عن الصورة
التي يجب ان يصاغ فيها ذلك القانون .



هو قانون مختصر يتكون من المواد التالية :

مادة ١ :

لا يجوز لاي انسان في أية دولة أن يتزوج قبل سن
الثلاثين ، واذا كان أربعين يبقى أحسن !

مادة ٢ :

كل من يضبط متلبسا بطفل رابع ، أو بطفل أصغر
من أخيه بأقل من خمس سنوات يعاقب بالحبس ستة

أشهر مع الشغل .

مادة ٣ :

إذا تكررت الجريمة من الزوج أكثر من مرتين جار
للمحكمة أن تخيره بين أحد أمرين : تعقيم زوجته أو
تطليقها فوراً . مع منعه من الزواج مرة أخرى .

مادة ٤ :

كل من يعاون في اخفاء طفل رابع في محل سكنه أو
غيره يعاقب بنفس العقوبة المنصوص عليها في المادة
الخامسة .



هذا مشروع موجه لذلك القانون المقترح . الذي
أعتقد أنه قد حان الوقت لتطبيقه في عصر العلم الذي
نعيش فيه . أما ان نطلق العنان لنزوات الهورمونات
والبويضات ونظرات الدلع والحقائب المحتضنة الى
الصدور فمعنى هذا ان لسه بدرى علينا ، وانه ما زال
أمامنا آلاف السنين قبل أن تصدق علينا صفة ان
الانسان حيوان عاقل !

مرثية للصيف الراحل

فصلى الحبيب يجود بأنفاسه الاخيرة ، فصل الصيف
الدافئ اللذيذ .

ليس بعد اليوم من جلسة شاعرية حلوة في ضوء
القمر ، فالقمر من الآن مجرد قرص معدنى ساقع يتخيل
المرء وجوده وراء اكداس السحب .

والقميص اللطيف أبو نصف كم راحت عليه . بدلاً
منه القميص والكرافطة الخانقة . وتحتهما الفانلة
الصوف التي تسبب للمرء احساسا دائما بالارتكاريا .
ولربما اضيف اليها زيادة في الاستدفاء بلوفر قديم ،
منظر مضحك حقاً ولكنك تعلم ان المرء قلما يخلع ثيابه
في الشتاء .

فاذا سرت في سوق الفاكهة فكانما أنا اسير في الصين .
بسبب ذلك اللون الاصفر الفاقع في أقفاص البرتقال
واليوسفى . راحت ايام ذلك الكرنفال اللوني الجميل
في موسم الصيف ، العنب الفزدقى في تناغمه الجميل
مع الزغلول الاحمر أو الرطب الاسود ، على خلفية
خضراء صارخة من البطيخ والمانجة ، والمشمش
الضاحك والبرقوق الذى بلون الدم ، واللمسة البنية
الوقورة في التين والامهات .

ذهب الصيف ولا بامية بعد اليوم لا بامية للأسف

ولا ملوخية خضراء . الاولى ستختفى من عند الخضرى
لكى تظهر محنطة عند البقال ، والثانية يبيعونها فى
هيئة مسحوق كأنه شاي . ونعلمهم يخلطونها لى بالشاي
وأنا لا أعلم .

ولا تقل لى اننى فى التماسى للخضرة أسطيع أن آكل
خبيزة . فالخبيزة فى نظرى تقليد فاشل جدا للملوخية ،
الى جانب انها تذكرنى بمكان لا أرتاح له فى طنطا .

— طابخين ايه النهارده ؟

— بسلة ..

والبسلة اما مسلوقة لا طعم لها ولا رائحة ، واما
بالصلصة وكيلو الطماطم بنصف ريال .

— طابخين ايه ؟

— كرنب ..

والكرنب وان كان من أجمل المناظر فى الحقل فهو
من أسوأ الروائح على المائدة . ومعدرة عن هذه التكريهه
الاضطرارية .

— لمونك بكام ياعم ؟

— بساغ الواحدة ..

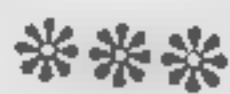
— ما ينفعش الاثنين بتلاتة تعريفه ؟

— يفتح الله ..

فاذا كنت تحب الليمون مثلى ، فها هو الليمون قد
صار — بعد الطماطم — بندا جديدا فى الميزانية . وعلى
العموم ما فائدة الليمون اذا كنت تعصره فلا تجد تحته
بامية ؟

وفى الشارع يرتفع صوت غليظ يقول جاز ! جاز !

بدلاً من أصوات الصيف الرخيمة التي تترنم بعظمة
المانجة أوتقول بطاظة ياللى تشوى! فيشترون الجاز لان
انبوبة البوتاجاز قد فرغت . وتليفون موزع البوتاجاز
مشغول طوال الشتاء .



وراء زجاج النافذة المغلق أقف لأرقب الاشجار
المرتعدة فى الخارج . منمايلة وسط الرياح العاتية كعمالة
مقيدة تضرب بالسياط . والسحب الكبيرة البيضاء
والسوداء تركض فى الفضاء الرحب - كما قال الشاعر -
ركض الخائفين . منظر يملأ نفس المرء كآبة وغما ،
خصوصا اذا كان هذا المرء يستغدى بسلة ..

أستطيع بالطبع أن أشعل المدفأة الكهربائية لزوم
الاستدفاء . ولكننى ما أن أنظر اليها حتى أتخيل عدا
الكهرباء وهو يجرى كالمجنون ليخرب بيتى . طول
الوقت يخيل الى اننى والعباذ بالله راكب تاكسى .

ومنظر الطريق هو الآخر يسم البدن . بعد أن غابت
الأذرع العارية السمراء عن الأنظار ، وفى جوف البنطلونات
غاصت السيقان الرشيقة البيضاء . ورب معطف ثقيل
يخفى ما تبقى من آثار التفاصيل ، فتتحول المرأة من
أنثى حية الى فكرة مجردة .

شهور طويلة تنقضى دون أن ترى عبنى من المرأة
« فى الطريق طبعاً » سوى يديها ورأسها وما الى ذلك
من أعضائها الثانوية .

وداعاً للصيف ..

وداعاً للدفء والتحرر والجمال ..

وداعاً للبامية والعنب والعشر ليمونات بقرش !

طلقوه !

السماء وراء النافذة المفتوحة مربع أزرق ، كالسهم
سرى عبره طائر قد يكون عصفورا كبيرا وقد يكون
حمامة صغيرة .

هى لم تر الطائر وان كانت مثله تنظر الى النافذة ،
أسندت رأسها منذ حين الى الخلف وسرحت ببصرها
فى السماء ، على شفيتها شبح ابتسامة راضية .

لان سيد درويش كان يقول : آه انا عشقت ، من نفير
كبير بنى اللون يعلو الفونوغراف ، واسطوانة تدور تحت
الابرة وتدور . هى ادارت الاسطوانة بنفسها ، بعد ان
ملأت الفونوغراف عن طريق اليد التى فى جانبه ،
والانسان على فكرة يجب أن يدير تلك اليد برفق وإلى
حد محدود ، لانه ان ادارها أكثر أو أعنف أدى ذلك
الى انكسار الزمبلك ..

سيد درويش قد شغلها عن الصينية التى فوق
حجرها . وفى الصينية أرز تنقيه . فى ناحية من
الصينية تركز الرز الاسود التالف . بعيدا عن الرز
الابيض الجيد فى الناحية الاخرى ، ترى هل ستصنعه
رزا عاديا ابيض . أو رزا أحمر نثرت عليه فتافيت
الكبد والكلاوى ؟

والآن تصعبت وهزت رأسها . ثم انحنت على الصينية
لتواصل عملها . شعرها الطويل تهدل على الصينية ،

شعر أسود بلون الليل . وبلون الاسطوانة التي تدور
وتدور . وهو ناعم أيضا ، طالما تخلله بأصابعه فوجد
له ملمس الحرير .

والآن رفعت يدها فردته الى الوراء . أزاحته عن
خدها الابيض مثل الرز الذي تنقيه . الرز الجيد الذي
تركته جهة اليسار . فماذا لو انه نهض وقصد اليها ،
وطبع قبلة على الخد الابيض الجميل ؟ لكنها لن تكون
قبلة في محلها ولا في وقتها . ما بين الرز وسيد درويش
وشفت غري كثير عشق . بصوت مبطن من الداخل
بالعطيفة . أو بالجوح الذي توجد قطعة مستديرة منه
تحت الاسطوانة الدائرة ، ترى لماذا يعلو جانب من
الاسطوانة وهي تدور ثم ينخفض . نوطنة لان يعلو من
جديد ؟

عمرى ما شفت المر الا في هواك . فهزت رأسها
ثانيا وتصعبت . . ولما هزت رأسها تهدل شعرها على
الصينية كما كان من قبل . تركته هذه المرة متهدلا
هناك . مشغولة بالاغنية عن كل شيء . وشعر سيد
درويش في كل صورده رآها له كان منكوشا دائما . الفن
فيما يبدو يتنافى مع نسريح الشعور . وهو يحفظ هذا
اللحن جيدا فلماذا لا يصاحبه من عنده بشيء من
الدندنة ؟ فما كاد يفعل حتى أتاه صوتها :

— شش !

غير مستعدة لان تسمع مع صوت الشيخ صوتا آخر
حتى لو كان صوته . فسكت وخجل من نفسه ،
ولانها جعلته يخجل من نفسه أحس انه يكرهها ، ولانه
كرهها خجل من نفسه أكثر .

— عاوزه أبيض والا أحمر ؟

فأحس أنه يحبها من جديد ، أدركت أنها أغضبتـه
والآن تريد أن تصالحه . فرجته لكي يطلبه أحمر
وبالكبد والكلاوى . لكنه لا يصح أن يكون سهل
المصالحة بهذه الصورة . فقال لها : زى بعضه وهو
يهز كتفه في غير احتفال . هزة لم ترها حيث عكفت
بوجهها على الرز :

— أنت موش بتحب الرز الأحمر ؟

هم ، وبالكبد والكلاوى ، وطائر جديد مر من
عبر المربع الأزرق ، كلا هو ليس حمامة بل عصفورا ،
والاستوانة قد انتهت وأخذت تدور على الفاضى .

— والنبي تدورها م الاول تانى .

فنهض متثاقلا ونقل الابرّة الى بداية الاستوانة ،
على المساحة السوداء اللامعة بغير خطوط ، ومرة قال
أن شفته ناكله ويريد أن يسلم بها على خد حبيبته .

وكذلك هو يريد أن يسلم على خدها ، أليست
صالحته ووعدته بصحن من الرز الأحمر ؟ بيده سوف
يزيح شعرها الأسود المتهدل . وعلى خدها الأبيض
سوف يطبع القبلة فتبتسم له فى امتنان .

وكانت بينه وبينها ترابيزة صغيرة . قدمه ارتطمت
بساقها فاختل نوازنه وكاد يسقط . ولكيلا يسقط
مد يده لكي يستند على شيء ما . وكان ذلك الشيء
بالمصادفة هو صينية الرز .

الصينية مالت تحت ثقله . والرز الأسود الذى كان
فى الناحية اليمنى زحف الى الناحية الأخرى واختلط
بالرز الأبيض ، فشهقت وأجفلت واشتعلت فى عينيها
الفاضبتين نظرة حمراء . عمرى ما شفت المر الا فى
هواك .. آه . آها ها ها ها !

صورة امرأة

لا أدري على وجه التحديد ماذا جذبني إليها حيث
وقفت على محطة الأوتوبيس تنتظر ، وربما كانت تلك
النظرة الودية الصابرة في وجهها الشاحب ، الجامع
بين مسحة حزن ولمسة انيميا . نظرة الى الامام على
الدوام نحو أوتوبيسها المنشود ، لا أظن انها رأتني
أصلا حيث وقفت وراءها . وإيشارب رخيص يغطي
رأسها ، وما برز من شعرها يؤكد ان الكوافير ليس
من المحال التي تتردد عليها . نعم ربما تكون قد زارته
مرة يوم زفافها ، ولكن ليس بعد ذلك قطعا !

ولا بد انه قد تم من حوالي خمس سنوات ، ذلك
الزفاف .. استنادا الى عمرها وعمر الولد الصغير الذي
يقف بجانبها ، شاحب الوجه مثلها وفي عينه نظرة
خاملة ، شأنه شأن أخته الأصغر منه ، وهو ما يوحي
بأن مدمسا بقرش لم يعد يكفي لإفطار العيال . ورفعت
الطفلة يدا صغيرة كبشت بها ذيل فستان أمها فأسرعت
هذه ينزعها عنه ، فهو في الغالب فستانها الوحيد الذي
يصلح للخروج . رخيص الخامة عادى التفصيل يتدلى
في غير تناسق حول ساقها النحيلتين ، وحذاء قديم
ملتوى الكعب مشقق الجلد ، اذ هي من تلك الطبقة

التي يجب أن تلبس حذاء بكعب دون أن يكون معها
ثممه .

مائلة في وقفها بعض الشيء بسبب الطفل الثالث
الذي تحمله على ساعدها اليسرى ، مغمض العينين
تتدلى رأسه فوق كتفها . رفعت يدها تصلح من
وضع رأسه وتحسستها في حنان ، يد مقصوفة
الاظافر وبغير طلاء ، لن ينفعها الطلاء والاظافر المدببة
في مرط الفسيل ومسح البلاط ودعك الحلل .

ثلاثة اطفال في خمسة اعوام ما لم يكن الرابع قد
مات ، واحتمال كبير لنطفة جديدة تختمر في هذه
اللحظة في اعماق الجسد النحيل .

في صبر عابس تنظر الى بعيد في ترقب للاوتوبيس
المنشود ، لم تنظر حولها مرة واحدة ، أغلب الظن ان
المناظر المحيطة بها تزعجها ، منظر الرائحات والفاديات
في الفسـاتين الحلوة والبنطلونات والاحذية الجديدة
اللامعة .

ربما كان موظفا في الدرجة الثامنة - زوجها -
أو تاجرا صغيرا أو سائق الاوتوبيس الذي تنتظره ..
ولسبب ما يخيّل الى انه يجب أن يكون أسمر الوجه
وبشّيب ، ومقاس حدائه أربعة وأربعون . بعد الغروب
على رصيف القهوة والغابة الطويلة بين شفتيه يشفط
منها أنفاس المعسل ، ونكتة بذئنة يقولها أحد الجلّساء
فيضحك ويشرق من الدخان فيسعل ، ثم يبصق على
الرصيف ويدعك الارض بحدائه الكبير .

والبيت غير بعيد حيث تنتظره ربة البيت ، بعد أن
أعدت عشاء مكونا من الجبنة البيضاء وقوطاية وخيارتين .
ثم تجلس في البلكونة التي أرجو ألا تكون مطلّة على

زقاق مزدحم صاخب بأصوات الباعة والميكروفونات .
مثل هذا الزقاق في ظني سوف يخلق صاحبة هذا
الوجه الشاحب الحساس . فلتكن مطلة على مكان
فسيح حتى ولو كان مجرد خرابة ، وحتى لو كانت في
بعض نواحيها مبلة بطفح المجاري .

وحيث تجلس في البلكونة لا أشك في انه يوجد فوق
رأسها حزمة ثوم معلقة على الحائط ، وكرسی خيزران
قديم يزيق تحتها كلما تحركت بالطفل الذي ينام على
حجرها وهو يأكل - كما لا بد انها تقول لنفسها - أرزا
بلبن مع الملائكة .

وهي قطعاً تسمع صوت سعاله على السلم قبل أن
يدخل ، وبينما يخلع ثيابه في الحجرة الداخلية ليلبس
الجلباب الأبيض الفضفاض . ثم سوف يفرش على أرض
البلكونة فروة خروف قديمة ويمدد قدميه على البلاط
قائلاً انه ساقع وحلو . وفي الظلام صوت قرشه للخيار
مع الجبنة البيضاء ، حتى يمتلئ فيرفع القلة الى فمه
ويقرب ، توطئة لان يسند بطنه بيده ويتجشأ وهو في
خيالي من النوع الذي يبدأ الحكاية بقوله لها ايه
الحلاوة دي يابت ؟ ثم يمد يده الى ما تيسر من لحمها ،
وقبله لزجة وطفل جديد .

والطفل الحالم صرخ فزعاً حين جرت به أمه نحو
الآوتوبيس الذي وصل . فما أدري كيف نجحت في أن
تحشر الطفلين في الزحام ، ولا كيف نجحت في أن تتعافى
بالآوتوبيس بيد واحدة . وتحرك الآوتوبيس وهي لا تزال
على السلم بالطفل الباكي ، لم ينقذها من السقوط في
أغلب الظن سوى ذلك الأفندي الشهم الذي تعلق
وراءها على السلم ليسندها من الخلف .

معتر السلال
فهرس

صفحة

البحث عن اله

٨	نوع من الآلهة
١٧	بعد عمر طويل
٢٤	باستت نو

الفراغة والجنس

٣٢	ذكر وأنش
٤٠	الحب والزواج
٤٦	وهكذا اخترعت الكتابة
٥٧	مقولة الهرم الأكبر
٦٧	من يوميات امون

سقوط امون

٧٦	الذي عاش في الحقيقة
٨١	تمثال للحلوة
٩٣	حتشبسوت وأنا
١٠٢	مسهرة عارية
١١٢	رمسيس وبنشاور